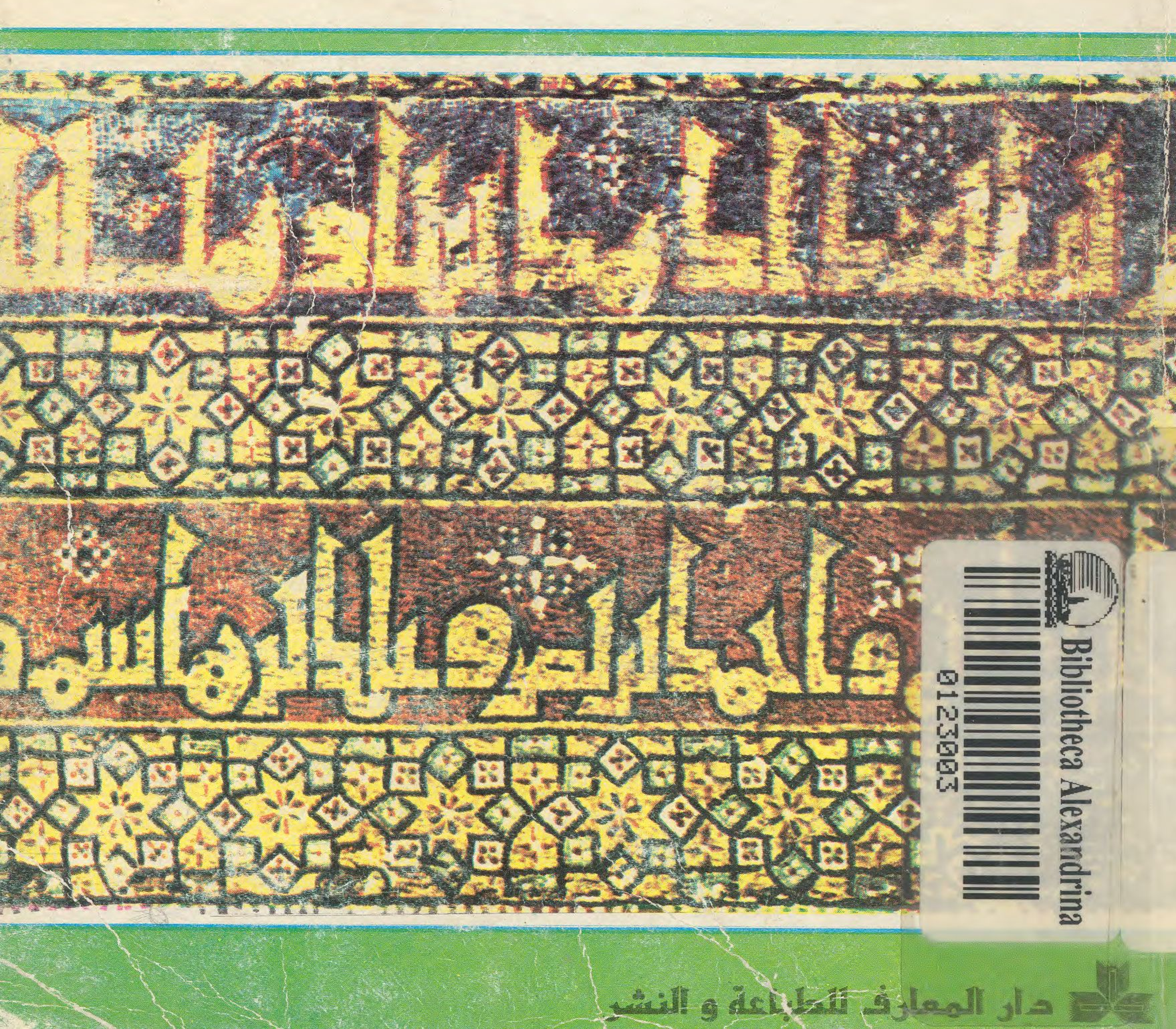
موسوعة الحضارة العربية الاسلامية

13

الفرق الاسلامية

د. محمد عمارة



دار المعارف للطباعة و النشر

الفرق الاسلامية

موسوعة الحضارة العربية الإسلامية

الفرق الاسلامية

د. محمد عمارة



دار المعارف للطباعة و النشر
سوسة - تونس

الرقم المسند من طرف الناشر 538 / 94
ISBN 9973 - 16 - 349 - 4 ر.د.م.ك

تعريف وتوطئة

لم يختلف المسلمون في الدين، على عصر صدر الاسلام، وانما كان خلافهم في السياسة، وبالذات حول الامارة والخلافة والامامة، وبصدد الصراع على السلطة العليا في الدولة..

ولقد نشأت أولى الفرق الاسلامية ـ وهي المحكمة (الخوارج) ـ على عهد علي بن أبي طالب بسبب الخلاف حول الامارة والصراع الدائر عليها، ولقد ظلت تلك القضية، طوال تاريخ المسلمين الفكري والعملي ـ هي المنبع الذي تصدر منه الفرق والأحزاب.. أي أن قضية الامارة والخلافة والامامة، وقضايا الصراع على السلطة العليا في الدولة، كانت دائماً مصدر تكوين الفرق ونشأة المذاهب وظهور الأحزاب..

والتأريخ للفرق الاسلامية، من حيث النشأة والتعداد وتمييز مقالاتها ومواقفها، من الفنون التي ألفت فيها الكتب والرسائل من علماء ومفكرين ينتمون الى مختلف الفرق والتيارات..

ومن بين القضايا التي عرض لها مؤرخو الفرق والمذاهب قضية عدد الفرق التي توزعت ملة الاسلام، والفترة الزمنية التي بدأ فيها تكوّن الفرق وظهورها. فبينما يرى مؤرخو الفرق من الشيعة أن نشأة الفرق قد ارتبط بالخلاف على الامامة يوم السقيفة، اذ تكونت الشيعة مع علي، وفرقة «الأمرة والسلطان» مع سعد بن عبادة، من الأنصار، وفرقة مالت لأبي

بكر[١]، نجد مؤرخي الفرق وكتّاب مقالاتها من المعتزلة والأشعرية والظاهرية وأصحاب الحديث والخوارج - أي كل من عدا الشيعة - يؤرخون بظهور فرقة الخوارج، على عهد علي، لنشأة الفرق في الاسلام . . وهو الرأي الصواب . . ذلك أن الفرقة، وهي اجتماع أناس متفرقين حول موقف ومبدأ وفلسفة ونمط متحد أو متقارب من أنماط التفكير، هي أمر يختلف عن الموقف الذي يتخذه فرد أو أفراد من قضية معينة ثم يتغير هذا الموقف وتتبدل ازاءه مواقع الأفراد، وهذا هو ما حدث للذين طلبوا الامارة لعلي بدلاً من أبي بكر، وهو نفس ما حدث للذين طلبوا الامارة لسعد بن عبادة، وان كان بعض الأنصار قد ظل على اعتقاده بأن حالهم وحال المسلمين كان سيصبح أفضل لو وليها سعد بن عبادة، ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع ولا يحق له أن يسمي هذا البعض فرقة ومذهباً، فإن بقاء البعض على اعتقاده أن علياً هو الأولى بالامارة، وأن صلاح المسلمين في تأميره لا يكفي كي نقول ان هذا البعض قد كون أو يكوّن فرقة، بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح . .

أما نشأة الخوارج فلقد ارتبطت، بل نبعت من قضية مثارة، وهم قد جمعتهم فلسفة موحدة، ومجموعة من المقالات والمواقف، وأنماط متحدة أو متقاربة في السلوك، ثم كان لهم استمرار في عصور الصراع الاسلامي حول هذه القضية التي سببت نشأتهم الأولى . . وكذلك كان الحال مع الفرق الرئيسية التي تلت ظهور الخوارج على مسرح السياسة . .

تلك اذن قضية خلافية بين مؤرخي المقالات، الشيعة وغيرهم من المؤرخين . .

---

(١) النوبختي (كتاب فرق الشيعة) ص ٢، ٣ تحقيق هـ. ريتر. طبعة استانبول سنة ١٩٣١ م.

أما القضية التي اتفق فيها جمهور مؤرخي المقالات، رغم غرابتها وافتقارها الى القواعد الثابتة، فهي عدد هذه الفرق. . فلقد اتفق هؤلاء المؤرخون على أن عدد فرق المسلمين ثلاثاً وسبعين فرقة، وان هذا الرقم هو نهاية ما وصلت وتصل اليه الأمة في التفرق وتعدد الاتجاهات. . ولقد استندوا جميعاً في ذلك الى حديث قالوا أنه قد روي عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول فيه: « افترقت اليهود على احدى وسبعين - (أو اثنتين وسبعين) - فرقة، وتفرقت النصارى على احدى وسبعين - (أو اثنتين وسبعين) - فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة »[1].

ونحن لا نميل الى التصديق بأن هذا الحديث هو من الأحاديث الصحيحة التي قالها الرسول ﷺ. . وذلك لعدة أسباب:

أولها: أنه، ككثير من الأحاديث المشابهة، حديث آحاد، وليس بالمتواتر، وأحاديث الآحاد وان جاز أن نأخذ بها في الأمور العملية فانها غير ملزمة في الاعتقادات. .

وثانيها: أن الحديث يثير قضية خطيرة وخلافية وشائكة، وهي هل كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلم الغيب؟ وهل كان التنبؤ بالغيب من بين معجزاته؟؟. . ونحن مع الذين يرون القرآن هو معجزة الرسول التي لم يتحد قومه بمعجزة سواها، وأنه في حياته وسلوكه كان بعيداً عن ادعاء علم

---

(١) أخرج هذا الحديث أبو داود، والترمذي، وابن ماجه وابن حنبل من حديث أبي هريرة، وأخرجه الحاكم وابن حيان في صحيحه بنحو هذا اللفظ، كما أخرجه في المستدرك، عن أبي هريرة بهذا اللفظ. . وله رواية أخرى عن عوف بن مالك عن الرسول، بمثل هذا اللفظ. . وقال عنه البيهقي: انه حسن صحيح. أنظر - غير كتب السنة - (خطط المقريزي) جـ ٣ ص ٢٨٢ طبعة دار التحرير، بالقاهرة، عن طبعة بولاق. و (الفرق بين الفرق) - للبغدادي ص ٤، ٥. طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت.

الغيب، بل ان آيات القرآن تنفي أن يعلم الرسول الغيب إلا اذا كان وحياً أوحاه الله اليه، والوحي الذي لا خلاف عليه هو المودع في القرآن. . يخاطب الرسول قومه فيقول: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك، ان أتبع الا ما يوحى اليّ. . . ﴾(١).

ويقول لهم كذلك ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما مسني السوء، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾(٢).

ويقول أيضاً: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك. . ﴾(٣) وأكثر من عدد هذه الآيات، التي ينفي فيها الرسول علمه بالغيب، عدد الآيات التي تقطع باختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم الغيب، يقول سبحانه: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو. . ﴾(٤) ويقول: ﴿ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه، فقل: انما الغيب لله. . ﴾(٥) ويقول: ﴿ولله غيب السموات والأرض، وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب، ان الله على كل شيء قدير﴾(٦) ويقول: ﴿قل، لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله، وما يشعرون أيان يبعثون﴾(٧) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تحصر علم الغيب

(١) الأنعام: ٥٥.
(٢) الأعراف: ١٨٨.
(٣) هود: ٣١.
(٤) الأنعام: ٥٩.
(٥) يونس: ٢٠.
(٦) النحل: ٧٧.
(٧) النمل: ٦٥.

ومعرفته في الله سبحانه وتعالى، وحده..

أما الآية التي يقول الله فيها: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. الا من ارتضى من رسول فإنه يسلك بين يديه ومن خلفه رصداً﴾(١)، فإن نطاق الاستثناء فيها يجب أن تحكمه الآيات التي تنفي علم الرسول للغيب، وتلك التي تقطع باستئثار الله به، وفي كل الأحوال فإن الاستثناء لا يعني الا جواز أن يوحي الله للرسول بنبأ من أنباء الغيب، وفي هذه الحالة يكون موضعه هو موضع النبأ المقطوع بأنه وحي، وهو القرآن الكريم.. وليس في القرآن شيء يتعلق بافتراق المسلمين الى ثلاث وسبعين فرقة؟!..

ثالثاً: إن الحديث يحدد عدد الفرق اليهودية والفرق النصرانية بواحدة وسبعين ـ أو اثنتين وسبعين ـ فرقة، وليس بين مؤرخي الفرق المسلمين ـ وهم قد اهتموا بالملل والنحل جميعها ـ ولا بين مؤرخي الفرق من غير المسلمين من حد هذه الفرق في الديانتين بهذا العدد..

رابعاً: ان واقع الفرق الاسلامية الذي كتب عنه وأرخ له هؤلاء الذين رووا هذا الحديث، واعتمدوا عليه، هذا الواقع يتناقض مع انقسام المسلمين الى هذا العدد، واذا كان المسلمون في تاريخ ظهور الفرق والأحزاب لديهم قد جاء عليهم يوم وصلت فيه فرقهم الى العدد الثالث والسبعين، وهذا طبيعي، فإن هذه الفرق قد زادت، ثم نقصت، ولا يزال المسلمون، في حياتهم الفكرية، قادرين وصالحين لأن تنشأ لديهم فرق جديدة أو تزول من حياتهم فرق قديمة.. المهم أن فرق الاسلام، التي استخدم هؤلاء المؤرخون مصطلح «فرقة» في وصفها، قد زادت عن الثلاث والسبعين فرقة... وهذه نماذج لذلك التناقض الذي وقع فيه هؤلاء

---

(١) الجن: ٢٦، ٢٧.

المؤرخون بين الحديث الذي صدروا به دراستهم للفرق وبين الواقع الذي جسّدوه لنا عن تعداد هذه الفرق وحياتها:

١ ـ عندما نبحث عن عدد الفرق الاسلامية، كما أرخ لها الأشعري في (مقالات الاسلاميين) نجد هذا العدد يتعدى المائة.. ففرق الشيعة عنده وحدها تبلغ خمساً وأربعين فرقة (الغالية: ١٥ والامامية: ٢٤ والزيدية: ٢٦).. وعدد فرق الخوارج ستاً وثلاثين فرقة.. والمرجئة فرقها اثنتا عشرة فرقة.. وذلك غير: المعتزلة، والجهمية، والضرارية، والحسينية، والبكرية، والعامة، وأصحاب الحديث، والكلابية[1].. على حين يذكر الأشعري، نفسه، وفي ذات الكتاب أنها إحدى عشرة فرقة، تتفرع الى ثلاث وسبعين، ولكنها في الدراسة، دراسته هو: تتعدى المائة كما رأينا؟!

٢ ـ وفي (الملل والنحل) للشهرستاني يبلغ تعداد الفرق ستاً وسبعين فرقة (المعتزلة ـ وهم الذين عدهم الأشعري فرقة واحدة ـ عدهم الشهرستاني ثلاث عشرة فرقة، وعدهم البغدادي عشرين فرقة؟!).. والخوارج سبع عشرة فرقة.. والشيعة اثنتان وثلاثون فرقة.. والمرجئة خمس فرق.. ثم: الجبرية، والجهمية، والنجارية، والضزارية، والصفاتية، والكرامية، والأشعرية، وأصحاب الحديث، وأصحاب الرأي..

٣ ـ أما ابن حزم فانه يعدها خمس فرق:

١ ـ أهل السنة.
٢ ـ والشيعة.
٣ ـ والمعتزلة.
٤ ـ والمرجئة.

---

(١) (مقالات الاسلاميين) جـ١ ص ٦٥ وما بعدها.. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م.

٥ ـ الخوارج[1]

٤ ـ والملطي، وهو من أقدم مؤرخي الفرق، يعدها أربعاً فقط:

١ ـ القدرية. ٢ ـ والمرجئة. ٣ ـ والشيعة. ٤ ـ والخوارج[2].

٥ ـ أما القاضي عبد الجبار فإنه يعدها خمس فرق:

١ ـ المعتزلة. ٢ ـ والخوارج. ٣ ـ والمرجئة. ٤ ـ والشيعة.

٥ ـ والنوابت[3] ـ (ويقصد بهم أهل الحديث) ـ ولكن فرقة الشيعة التي يذكرها هنا واحدة يصل عدد فرقها ـ نعم فرقها ـ عنده في (المُغْني) الى احدى وستين فرقة، وخلافاتها ليست في الفروع حتى نقول إنها فروع لفرق وليست فرقاً تستحق هذا الاسم، بل ان خلافاتها في الامامة، وبالذات شخص الامام، والامامة عندها كالنبوة، بل أكثر أهمية عند بعضهم، ومن لم يعرف امامه مات ميتة جاهلية؟!.. ففرق الامامية تبلغ عند القاضي تسعاً وأربعين[4]، وفرق الزيدية اثنتي عشرة فرقة[5]..

٦ ـ والمقريزي الذي يروي الحديث ويجمع طرق روايته ويوثقه يقول عن احدى هذه الفرق، وهي الرافضة، انهم «اختلفوا في الامامة اختلافاً كثيراً، حتى بلغت فرقتهم ثلثمائه فرقة، والمشهور منها عشرون فرقة!» ويقول عن احدى الفرق التي انقسمت من الرافضة، وهي «الخطابية»:

---

(١) (الفصل في الملل والأهواء والنحل) جـ ٢ ص ١٠٦. طبعة القاهرة الأولى سنة ١٣٢١ هـ.

(٢) د. عبد الكريم عثمان (قاضي القضاة: عبد الجبار بن أحمد الهمذاني) ص ١٠٤. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م.

(٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٥٢. تحقيق فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.

(٤) (المغني) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٧٦ ـ ١٨٢. طبعة القاهرة.

(٥) المصدر السابق. جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٨٤، ١٨٥.

« . . اتباع أبي الخطاب محمد بن أبي ثور. . وأتباعه خمسون فرقة؟!. . ويقول عن المعتزلة: « . . وهم عشرون فرقة. . . » ولا يذكر فيهم القدرية، اذ يذكرها كفرقة مستقلة عن المعتزلة[1]. .

٧ ـ أما الخوارزمي فانه يعدد الفرق الرئيسية فتبلغ عنده سبعا هي:

١ ـ المعتزلة (وهي عنده تنقسم الى ست فرق). .
٢ ـ والخوارج (وتنقسم عنده الى أربع عشرة فرقة). .
٣ ـ وأصحاب الحديث (وتنقسم عنده الى أربع فرق). .
٤ ـ والمجبرة (وهي عنده خمس فرق). .
٥ ـ والمشبهة (وهي عنده ثلاث عشرة فرقة). .
٦ ـ والمرجئة (وهي عنده ست فرق). .
٧ ـ والشيعة (وهي عنده خمس فرق تتفرع الى أصناف. فالزيدية: ٥، والكيسانية: ٤، والعباسية: ٢، والغالية: ٩، والامامية: ٤). .

فإذا عددنا « الأصناف » فرقاً بلغ مجموعها جميعاً عند الخوارمي اثنتين وسبعين فرقة، وإذا لم ندخلها في عداد الفرق وقفت عند ثلاث وخمسين فرقة فقط. . وفي كلا الحالين فهي ليست ثلاثاً وسبعين، كما يقول الحديث![2] .

وهذا الاضطراب الذي يتجلى، لدى مؤرخي الفرق، في تعداد هذه الفرق، ينبع من الافتقار الى منهج يحدد المعيار الذي على أساسه يتم الحكم بأن هذه الجماعة « فرقة »، أو أن الذي بينهم وبين أصولهم هو مجرد اختلاف

---

(١) (خطط المقريزي) جـ ٣ ص ٢٨٣ ـ ٢٩٤.
(٢) (مفاتيح العلوم) ص ١٨ ـ ٢٢. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ.

في فروع الأصول العامة التي اتفقت عليها الفرقة الأم . .

فالمعتزلة، مثلاً، الذين يصل أغلب كتاب الفرق والمقالات بعدد فرقهم الى العشرين، هم فرقة واحدة، تجمعها أصول خمسة، لا يعد من أهلها الا من اعتقد بهذه الأصول الخمسة، وفي اطار هذه الفرقة اختلافات واجتهادات حول عديد من القضايا الفرعية، مثل: الطبع . . والتولد . . والطفرة . . والجزء الذي لا يتجزأ . . والموقف من: أيها أفضل، علي أم أبو بكر؟ . . أما العدل، والتوحيد، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنها الأصول الخمسة التي لا يصبح معتزلياً الا من اعتقد بها . .

وهذا المثال يزيد من وضوح الاضطراب الذي وقع فيه مؤرخو المقالات عندما شرعوا في تعدادها . . ولقد ساعد على هذا الاضطراب ـ الى جانب غياب المنهج المحدد للمعيار الدقيق في التقسيم ـ الالتزام « بالحديث » الذي يجعل هذه الفرق ثلاثاً وسبعين فرقة . . فبدأوا حديثهم بهذا العدد، فلما استقصوا الواقع وقفوا دونه أو تجاوزوه! . .

ونحن لا نستبعد أن يكون الرسول عليه الصلاة السلام قد تنبأ بافتراق الأمة واختلافها، اذ ان اتحاد أمة من الأمم وأهل دين من الأديان كفرقة واحدة هو أمر مستحيل بحكم التجربة الانسانية السابقة وما تطرحه الحياة المتجددة من قضايا ومعضلات، وما فيها من مصالح تستلزم بالقطع الاجتهاد والاختلاف والاتفاق . . فهو نوع من النبوءة الفكرية والسياسية، تخرج عن الغيب وأنبائه، بل وتخرج عن أن تكون خاصية من خواص الرسل والأنبياء . . أما أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قد حدد عدد الفرق بثلاث وسبعين فهو مالا نميل إلى تصديقه، لما قدمنا من أسباب.

ولقد أدرك الشهرستاني ذلك الاضطراب الذي وقع فيه مؤرخو

الفرق، وافتقار البحث الى « قانون » يميز الفرق ويجعل تعدادها أمراً دقيقاً ـ وعبر عن هذا الادراك في عبارات واضحة نوردها كاملة لأهميتها . . قال:

« اعلم أن لأصحاب المقالات طرقاً في تعديد الفرق الاسلامية، **لا على قانون مستند الى نص، ولا على قاعدة مخبرة عن الوجود،** فما وجدت مصنفين متفقين على منهاج واحد في تعديد الفرق. ومن المعلوم الذي لا مراء فيه أن ليس كل من تميز عن غيره بمقالة ما في مسألة ما عدّ صاحب مقالة، والا فتكاد تخرج المقالات عن حد الحصر والعد، ويكون من انفرد بمسألة في أحكام الجواهر مثلاً معدوداً في عداد أصحاب المقالات. فلابد اذا من ضابط في مسائل هي أصول وقواعد يكون الاختلاف فيها اختلافاً يعتبر مقالة، ويعد صاحبه صاحب مقالة.

وما وجدت لأحد من أرباب المقالات عناية بتقرير هذا الضابط، الا أنهم استرسلوا في ايراد مذاهب الأمة، كيف اتفق، وعلى الوجه الذي وجد، لا على قانون مستقر وأصل مستمر، فاجتهدت على ما تيسر من التقدير، وتقدر من التيسير، حتى حصرتها في أربع قواعد، هي الأصول الكبار:

(القاعدة الأولى): الصفات والتوحيد فيها . . وهي تشتمل على مسائل الصفات الأزلية، اثباتاً عند جماعة ونفياً عند جماعة، وبيان صفات الذات وصفات الفعل، وما يجب لله تعالى وما يجوز عليه وما يستحيل. وفيها الخلاف بين: الأشعرية، والكرامية، والمجسمة، والمعتزلة.

(القاعدة الثانية): القدر والعدل ـ وهي تشتمل على مسائل القضاء، والقدر، والجبر، والكسب في ارادة الخير والشر، والمقدور والمعلوم، اثباتاً عند جماعة ونفياً عند جماعة، وفيها الخلاف بين: القدرية، والنجارية، والجبرية، والأشعرية، والكرامية.

(القاعدة الثالثة): الوعد والوعيد، والأسماء والأحكام. . وهي تشتمل على مسائل الايمان، والتوبة، والوعيد، والارجاء، والتكفير، والتضليل، اثباتاً، على وجه، عند جماعة، ونفياً عند جماعة، وفيها الخلاف بين: المرجئة، والوعيدية، والمعتزلة، والأشعرية، والكرامية.

(القاعدة الرابعة): السمع والعقل، والرسالة والامامة ـ وهي تشتمل على مسائل التحسين، والتقبيح، والصلاح والأصلح، واللطف، والعصمة في النبوة، وشرائط الامامة، نصاً عند جماعة، واجماعاً عند جماعة، وكيفية انتقالها على مذهب من قال بالنص، وكيفية اثباتها على مذهب من قال بالاجماع، والخلاف فيها بين: الشيعة، والخوارج، والمعتزلة، والكرامية، والأشعرية.

فإذا وجدنا انفراد واحد من أئمة الأمة بمقالة من هذه القواعد عددنا مقالته مذهباً وجماعته فرقة، وان وجدنا واحداً انفرد بمسألة فلا نجعل مقالته مذهباً وجماعته فرقة، بل نجعله مندرجاً تحت واحد ممن وافق سواها مقالته، ورددنا باقي مقالته الى الفروع التي لا تعد مذهباً مفرداً، فلا تذهب المقالات الى غير نهاية.

وإذا تعينت المسائل، التي هي قواعد الخلاف، تبينت أقسام الفرق، وانحصرت كبارها في أربع، بعد أن تداخل بعضها في بعض.

كبار الفرق الاسلامية أربع: القدرية، الصفاتية، الخوارج، الشيعة. . »[1].

هذه عبارات الشهرستاني، ونحن نتفق تماماً مع المنهج الذي وضعه

---

(١) (الملل والنحل) جـ ١ ص ٩ ـ ١٣. مطبوع على هامش (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم. طبعة القاهرة، الأولى سنة ١٣٢١ هـ.

لتحديد الفرق بين « المقالة » التي يؤدي الانفراد بها الى قيام الفرقة والمذهب، وبين « المسألة » التي تندرج في فرقة أعم وأشمل منها. . فقط لنا على نتائجه ملاحظتان :

الأولى: أنه انتهى الى أن كبار الفرق هي: القدرية - (المعتزلة) - والصفاتية - (أي أصحاب الحديث، أو « النوابت » كما يسميهم القاضي عبد الجبار) - والخوارج، والشيعة. . وهو بذلك يغفل مكان « المرجئة ». . اذ المعلوم أن اندراج المرجئة تحت أهل الحديث، وهو ما يبدو أن الشهرستاني قد عناه وقصد اليه هو أمر غير دقيق، ذلك أن الارجاء قد بدأ كموقف سياسي من الصراع الذي دار حول السلطة على عهد الأمويين، وتكونت لذلك فرقة، بل لقد ظهر في الإرجاء أكثر من مذهب وأكثر من تيار، واذا كانت الفرق الاسلامية قد ظهرت لأسباب سياسية، وليس لجدل ديني معزول عن قضايا المجتمع، فإن اغفال « المرجئة » ونحن بصدد تعداد الفرق الكبرى لا يجوز. . ومن هنا فنحن نرى أن تعداد القاضي عبد الجبار لهذه الفرق عندما قال: « . . ومعلوم أن فرق الأمة، في الجملة: المعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والشيعة، والنوابت »[1]. هو التعداد الأدق، وهو مبني على ذات المنهج الذي حدده الشهرستاني في عمق وابتكار. .

والثانية: أن الشهرستاني، بعد أن حدد هذا المنهج وطبقه على واقع الفرق الاسلامية، عاد ليخضع المنهج والواقع لذلك الحديث الذي رووه عن أن عدد فرق الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة، فقال: ان هذه الفرق الكبار « يتركب بعضها مع بعض، ويتشعب عن كل فرقة أصناف فتصل الى ثلاث وسبعين فرقة »[2]. . وهو موقف يعكس التناقض بين « الدراية » و

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٥٢.

(٢) (الملل والنحل) ص ١٣.

« الرواية »، ومحاولات « التوفيق » بين « الواقع » وبين « النص » حتى لو أبى الواقع ذلك التوفيق، وحتى لو كان هذا النص حديثاً من أحاديث الآحاد. .

* * *

ولقد نشأ عن موقف مؤرخي الفرق والمقالات أن أصبح القارىء والباحث في تراثنا العربي الاسلامي يطالع العديد من أسماء « الفرق » والتيارات المذهبية والمدارس الفكرية، وفي كثير من الأحيان لا تسعفه المصادر بما يربط هذه « الفرق » الفرعية بأصولها، أو بما يميزها فكرياً عن غيرها، الأمر الذي استوجب أن نورد هنا ثبتاً يكاد يحصر أسماء « الفرق » وما تفرع عنها، وفق ما اصطلحت عليه وتداولته مصادر فكر العرب والمسلمين، وأن نرتب أسماءها هذه ترتيباً أبجدياً لتزيد الفائدة وتسهل الاستفادة على الباحثين والقراء. .

« أ »

١ ـ **الأباضية**: من فرق الخوارج. ينسبون الى عبد الله بن أباض، ومقالاتهم معتدلة اذا ما قيسوا بالخوارج والأزارقة أو الخوارج النجدات.

٢ ـ **الأبو مسلمية**: نسبة الى أبي مسلم الخراساني، وهم يقولون إنه لا زال حياً لم يمت!.

٣ ـ **الاثنا عشرية**: هم جمهور الشيعة الامامية، وقفوا بأئمتهم عند الثاني عشر، فهو الغائب المنتظر. . (أنظر: القطعية). .

٤ ـ **الأحمدية**: من الشيعة الامامية. ينسبون الى أحمد بن موسى بن جعفر.

٥ ـ **الأخنسية**: من الخوارج العجاردة، وهم انشقاق عن الخوارج

الثعالبة، سموا باسم زعيمهم « الأخنس »، يحكمون « بالتوقف » عن جميع أهل دار « التقية »، سوى من عرفوا ايمانه أو كفره. ويحرمون الاغتيال والقتل سراً، والبدء بالقتال دون دعوة.

٦ ـ **اخوان الصفا**: جماعة سرية « من الشيعة الاسماعيلية (الباطنية)، قامت بالبصرة في القرن الرابع الهجري. مزجت الفكر الاسلامي بالفلسفة اليونانية. .

٧ ـ **الأزارقة**: من الخوارج اتباع أبي راشد نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي. وهم أول انشقاق في فرقة الخوارج يتبرّؤون من القعدة، ويكفرون من لم يهاجر الى مواطنهم ومعسكراتهم، ويرون كل كبيرة كفراً، ودار مخالفيهم دار كفر.

٨ ـ **الاسحاقية**: من غلاة الشيعة الكيسانية، يشركون علي بن أبي طالب في النبوة مع الرسول، عليه الصلاة والسلام، ويقولون آن الله قد جل في علي.

٩ ـ **الاسحاقية**: من المرجئة، فرع من الكرامية. وهم مشبهة مجسمة.

١٠ ـ **الاسكافية**: من المعتزلة، ينسبون الى أبي جعفر الاسكافي. قالوا: ان الله لا يقدر على ظلم العقلاء.

١١ ـ **الاسماعيلية**: من الشيعة الامامية. قالوا: ان الامام بعد جعفر الصادق هو ابنه اسماعيل، وليس موسى الكاظم، كما قالت الاثنا عشرية. وهم يمثلون التيار الثوري في الامامية، ويعرفون، أيضاً، بالباطنية، لقولهم أن لكل ظاهر باطناً. وفي تعاليمهم يمتزج الاسلام بالفلسفة اليونانية.

١٢ ـ **الاسوارية**: من المعتزلة، ينسبون الى الأسواري، وهم يتميزون عن النظامية بقولهم ان الله لا يقدر على ما أخبر بعدمه أو علم عدمه،

والانسان قادر عليه.

١٣ ـ **الأشعرية**: نسبة الى أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ ٨٧٤ ـ ٩٣٦ م). وهم يمثلون الموقف الوسطى بين المعتزلة وبين الجبرية الخلص (الجهمية). ففي فعل الانسان قالوا: ان خالقه هو الله، وللانسان فيه الكسب، أي كونه محلاً للفعل، فهو فاعل له على سبيل المجاز. وفي التأويل يجزون بعضه، فلا يمنعونه كما هو حال أصحاب الحديث، ولا يعتمدونه سبيلاً لنصرة برهان العقل على ما يعارضه من ظاهر النقل، كما هو حال العقلانيين. وفي صفات الله: يثبتون له الصفات، ولكن على نحو يجعلهم وسطاً بين تنزيه المعتزلة وتشبيه المجسدة والمشبهة.

١٤ ـ **أصحاب أبي ثوبان**: من المرجئة. يقولون ان الايمان هو: الإقرار بالله وبرسله.

١٥ ـ **أصحاب أبي شمر ويونس**: من المرجئة: قالوا: الايمان اجتماع المعرفة بالله، والخضوع له، والمحبة له بالقلب، والاقرار به أنه واحد ليس كمثله شيء، وذلك اذا لم تقم حجة الأنبياء، أما اذا قامت حجتهم فإن الايمان يكون هو الاقرار بهم والتصديق لهم، حتى لو لم تتم المعرفة بما جاء من عند الله. ويقال ان أبا شمر جعل العدل، أي القدر والاختيار، وجعل التوحيد، أي التنزيه ونفي التشبيه، من الايمان.

١٦ ـ **أصحاب أبي صالح**: من الخوارج الصفرية. ينسبون الى صالح ابن مسرح.

١٧ ـ **أصحاب التفسير**: من الخوارج البيهسية. ينسبون الى الحكم بن مروان، من أهل الكوفة، وهم ينكرون الشهادة في الحدود وغيرها الا اذا فسرت كيف هي.

١٨ ـ **أصحاب حارث الأباضي**: من الخوارج الاباضية. قالوا بالقدر،

على رأي المعتزلة، وقالوا ان الاستطاعة قبل الفعل.

١٩ - أصحاب الحديث وأهل السنة: وهم جمهور الأمة وعامة أهلها. قالوا: ان أفعال العباد مخلوقة لله. والخير والشر بقضاء الله وقدره - (فهم جبرية متوسطون) ويمتنعون عن الخوض في صراع الصحابة على السلطة، ويرتبون الخلفاء، في الفضل، ترتيبهم في تولي الخلافة. ويرون البيعة لمن تولى الامامة، براً كان أو فاجراً، وينكرون الثورة والخروج كأسلوب وسبيل لتغيير الظلم والجور. ويقولون ان الأرزاق من الله، يرزقها عباده، حلالاً كانت أو حراماً - (على عكس المعتزلة الذين يخصصون الرزق بما كان حلالاً دون ما كان حراماً).

٢٠ - أصحاب الرأي: من المرجئة، وهم أصحاب أبي حنيفة النعمان ابن ثابت - (أنظر: الحنفية).

٢١ - أصحاب محمد بن شنيب: من المرجئة، قالوا: ان الايمان هو: الاقرار بالله، والمعرفة بأنه واحد ليس كمثله شيء، والاقرار والمعرفة بالأنبياء والرسل وبجميع ما جاءوا به من عند الله، مما لا خلاف فيه.

٢٢ - الأطرافية: من القدرية. وهم أتباع غالب بن شاذل، السجستاني. قالوا: ان أهل الأطراف التاركون لما لم يعرفوه من الشريعة معذورون.

٢٣ - الأفطحية: من الشيعة الامامية. قالوا بانتقال الامامة بعد جعفر الصادق الى ابنه عبد الله الأفطح، وهو شقيق اسماعيل.

٢٤ - الامامية: هم الشيعة الذين قالوا بالنص والوصية على الأئمة من آل البيت، وبالذات أبناء علي من فاطمة.

٢٥ - أهل العدل والتوحيد: تيار عريض في الفكر الاسلامي، يشمل

كل من أثبت للانسان قدرة وارادة واستطاعة واختياراً، وكل من نزه الذات الالهية عن مشابهة الحوادث، ونفي الصفات الزائدة على الذات. وفي هذا التيار يدخل: الحسينية ـ أتباع الحسن البصري ـ والمعتزلة، وبعض الخوارج، وبعض الشيعة.

« ب »

٢٦ ـ **الباقرية**: من الشيعة. أصحاب أبي جعفر محمد بن علي الباقر وابنه جعفر الصادق، الذين توقفوا عند امامتهما أو امامة أحدهما. أنظر: (الجعفرية) و (الواقفية).

٢٧ ـ **البترية**: من الشيعة الزيدية. وهم أصحاب الحسن بن صالح بن حي (١٠٠ ـ ١٦٨ هـ). . وأصحاب كثير النواء ـ (أو النوبى، أو الثومي) ـ واسمه: المغيرة بن سعد، وهو الذي كان يلقب بالأبتر. وهم يفضلون علي ابن أبي طالب، ويصححون بيعة أبي بكر وعمر، لأن علياً ترك لهما الأمر، ويتوقفون في الحكم على عثمان وعلى قتلته. وينكرون الرجعة. ويعترفون بامامة علي عندما بويع بها.

٢٨ ـ **البدعية**: من الخوارج، وهم أتباع يحيى بن إصرم. وسموا بذلك لأنهم أبدعوا قطع الشهادة على أنفسهم أنهم من أهل الجنة.

٢٩ ـ **البرغوثية**: هم الذين قالوا: ان كلام الله اذا قرىء فهو عَرَض، واذا كتب فهو جسم.

٣٠ ـ **البزيغية**: من غلاة الشيعة. وهم فرع من الخطابية، قالوا: ان الامام بعد أبي الخطاب هو بزيغ بن موسى ـ (أو ابن يونس) ـ وهم يقولون بشيوع الوحي، وينكرون اختصاص الأنبياء به.

٣١ ـ **البشرية**: من المعتزلة. أصحاب بشر بن المعتمر، وهم الذين

أحدثوا القول بالتولد.

٣٢ ـ البطيخية: من المجبرة. ينسبون الى اسماعيل البطيخي.

٣٣ ـ البكرية: الذين قالوا ان خلافة أبي بكر هي بالنص عليه من الرسول، لا بالاختيار المطلق من اصحابة.

٣٤ ـ البكرية: أتباع أبي بكر بن زياد الباهلي ـ (بكر ابن أخت عبد الواحد بن زيد) ـ قالوا: ان كبائر أهل القبلة نفاق، ومرتكبوها عبدة للشيطان، مكذبون بالله وجاحدون له، خالدون مخلدون في النار، اذا ماتوا مصرين عليها، غير تائبين منها، ومع ذلك فهم مؤمنون مسلمون.

٣٥ ـ البهشمية: من المعتزلة ينتسبون الى أبي هاشم الجبائي.

٣٦ ـ البيانية: من غلاة الشيعة، أتباع بيان بن سمعان التميمي النهدي اليمني، الذي ظهر بالعراق أوائل القرن الثاني الهجري. يقولون بحلول جزء إلهي في علي بن أبي طالب، انتقل منه الى ابنه محمد بن الحنفية، فابنه أبي هاشم، فبيان بن سمعان. ويقال ان بيان زاد في الغلو فادعى النبوة!. وهم مشبهة مجسدة يقولون ان الله على صورة انسان، وانه يهلك كله الا وجهه!. ولقد انتهت حياة بيان بقتله وصلبه على يد الوالي الأموي على العراق خالد بن عبد الله القسري.

٣٧ ـ البيهسية: من الخوارج، وهم انشقاق على الخوارج الميمونية. وإمامهم: أبو بيهس هيسم بن جابر، من بني سعد بن ضبعة بن قيس، قالوا: لا اسلام بدون معرفة الله ورسوله وما جاء به جملة، والولاية لأولياء الله، والبراءة من أعدائه. ولقد انتهى أبو بيهس بأن قطع والي المدينة، عثمان بن حيان، يديه ورجليه، بأمر الوليد الأموي.

« ت »

٣٨ ـ التومنية (المعاذية): من المرجئة. ينسبون الى أبي معاذ التـومني. قالوا: ان الايمان هو: ما عصم عن الكفر، فهو اسم لمجموع الخصال التي اذا تركت كان تاركها كافراً ـ (أنظر: المعاذية) ـ

« ث »

٣٩ ـ الثعـالبة: من الخـوارج العجاردة. أتبـاع ثعلبة. قـالـوا: ليس لـلأطفال، عـامة، ولايـة ولا عداوة ولا بـراءة، حتى يبلغوا فيـدعـون الى الاسلام، فيقرون أو ينكرون.

٤٠ ـ الثمامية: من المعتزلة. أصحاب ثمامة بن أشرس. قالوا: اليهود والنصارى والزنادقة يصيرون في الآخرة تراباً ولا يدخلون جنة ولا ناراً.

٤١ ـ الثوبانية: من المرجئة. أصحاب أبي ثوبان المرجئي. قالـوا: ان الايمان هو: المعرفة والاقرار بالله وبرسله وبكل ما يجوز في العقل أن نفعله، ومـا جاز في العقـل تركـه فليس من الايمـان، وان العمـل كله مؤخـر عن الايمان.

« ج »

٤٢ ـ الجاحظية: من المعتزلة، ينسبون الى أبي عثمـان عمرو بن بحـر الجاحظ، قالوا: يمتنع انعدام الجوهر، والخير والشر من فعل العبد.

٤٣ ـ الجارودية: من الشيعة الزيدية، ينسبون الى أبي الجارود زياد بن أبي زياد. وهم يقولـون: ان النص على علي بن أبي طالب بـالامامـة كان بالوصف، لا بالاسم والتعيين، وأن الإمام بعـده الحسن، فالحسـين، وأن الامامة شورى بعدهم في ولد الحسن والحسين.

٤٤ ـ **الجازمية**: من الشيعة الغلاة. ينسبون الى جازم بن عاصم.

٤٥ ـ **الجبائية**: من المعتزلة، ينسبون الى أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي.

٤٦ ـ **الجبرية**: هم عدة فرق اسلامية، يجمعها: نفي أن يكون الانسان خالق أفعاله. ويميز بينها التفاوت في الموقف الجبري. فبعضها يرى الانسان مجبراً جبراً مطلقاً، فهو كالريشة المعلقة في الهواء، تميلها ريح القدرة الالهية حيث مالت.. وبعضها ينسب للانسان «كسباً» هو عبارة عن الرغبة في الفعل والقصد اليه، أما خالق الفعل ذاته فهو الله.. وبعضها يرى أن الانسان «فاعل» لكن على سبيل المجاز، والفاعل الحقيقي هو الله.

٤٧ ـ **الجحدرية**: من المرجئة، ينسبون الى جحدر بن محمد التميمي.

٤٨ ـ **الجعفرية**: من المعتزلة، ينسبون الى جعفر بن مبشر، وجعفر بن حرب.

٤٩ ـ **الجناحية**: من غلاة الشيعة. ينسبون الى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ذي الجناحين) أو (الطيار)، وهم يقولون بتناسخ الأرواح، وان روح الله حلت بامامهم عبد الله بن معاوية، مروراً بآدم وبنيه... وأن العلم ينبت ويظهر بقلب امامهم ظهوراً، ويقولون بأبدية الدنيا، وينكرون زوالها، ومن ثم ينكرون القيامة، ولا يحرمون الميتة ولا الخمر. ويقال ان غلوهم بلغ حذ عبادة عبد الله بن معاوية، لما فيه من روح الله، والقول بأنه حي لم يمت، وهو بجبل أصبهان، وسيعود اليهم. ولقد ثارت الجناحية على عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، في الكوفة، وانتقلت ثورتهم الى شرقي دجلة فاستولوا على حلوان وما حولها، وهمذان، والري، وأصبهان، وظلوا كذلك حتى قاتلهم أبو مسلم الخراساني فهزمهم وقتل قائدهم: (انظر الطيارية).

٥٠ ـ **الجهمية**: مرجئة، وجبرية خلص. ينسبون الى الجهم بن صفوان. وهم القائلون بالجبر الخالص، والإيمان عندهم معرفة قلبية لا علاقة لها، زيادة ولا نقصاً، بالعمل الذي تأتيه الجوارح.

٥١ ـ **الجواليقية**: من المشبهة. ينسبون الى هشام بن عمرو الجواليقي.

« ح »

٥٢ ـ **الحائطية**: من المعتزلة، ينسبون الى أحمد بن حائط.

٥٣ ـ **الحارثية**: من الخوارج الأباضية، ينسبون الى الحارث الأباضي. قالوا بالقدر، مثل المعتزلة، وبأن الاستطاعة قبل الفعل، وأثبتوا طاعة لا يراد بها الله.

٥٤ ـ **الحازمية**: جبرية. قالوا ان الله هو خالق أفعال العباد. وتوقفوا في أمر علي بن أبي طالب، ولكنهم تبرؤوا من أعدائه.

٥٥ ـ **الحازمية**: من الخوارج، ينسبون الى شعيب بن حازم.

٥٦ ـ **الحبية**: من المشبهة. سموا بذلك لقولهم انهم يعبدون الله حباً له، لا خوفاً ولا طمعاً.

٥٧ ـ **الحربية**: من الشيعة الكيسانية، ينسبون الى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي. وهم انشقاق عن البيانية، اذ زعموا أن الامامة بعد أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية هي لعبد الله بن عمرو، وليست لبيان ابن سمعان.

٥٨ ـ **الحسنية**: من أهل العدل والتوحيد، ينسبون الى الحسن البصري.

٥٩ ـ **الحسينية**: مرجئة. ينسبون الى أبي الحسين. ويقولون ان الدار

دار حرب.

٦٠ ـ الحسينية: من الشيعة. يقولون ان الامامة بعد أبي منصور هي لابنه الحسين بن أبي منصور، فلقد أوصى له بها.

٦١ ـ الحشوية: هم الذين قصرت بهم مداركهم عن مراتب فكر التنزيه والتجريد، بالنسبة للذات الالهية، وذلك لتمسكهم بالظواهر، ومن ثم كانوا مشبهة مجسمة والمعتزلة يطلقون هذه التسمية ـ (الحشوية ـ وأهل الحشو) ـ على خصوم فكرهم العقلاني.

٦٢ ـ الحفصية: من الخوارج الأباضية، ينسبون الى حفص بن المقدام، وهم يميزون بين الشرك ـ وهو الجهل بالله وحده ـ وبين الكفر ـ وهو انكار ما سوى الله، من رسل ومعاد وطاعات ـ وبين الايمان. ويتأولون في عثمان ما تأولت الشيعة في أبي بكر وعمر.

٦٣ ـ الحلولية: من غلاة الشيعة، قالوا ان الله هو روح القدس، وانها حلت في النبي، ثم في أئمتهم: علي، فالحسن، فالحسين، فعلي بن الحسين، فمحمد بن علي، فجعفر بن محمد بن علي، فموسى بن جعفر، فعلي بن موسى بن جعفر، فمحمد بن علي بن موسى، فعلي بن محمد بن علي بن موسى، فالحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى، فمحمد بن الحسن ابن علي بن محمد بن علي. ولذلك قالوا بألوهية هؤلاء الأئمة.

٦٤ ـ الحمزية: من الخوارج العجاردة، وينسبون الى حمزة. قالوا بالقدر، وبقتال السلطان ومن أعانه خاصة.

٦٥ ـ الحنبلية: من أصحاب الحديث. ينسبون الى أحمد بن حنبل.

٦٦ ـ الحنفية: من المرجئة، ينسبون الى أبي حنيفة النعمان بن ثابت. قالوا ان الايمان هو المعرفة بالله والاقرار به، والمعرفة بالرسول، والاقرار بما جاء عن الله جملة، لا تفسيراً.

« خ »

٦٧ ـ **الخازمية**: من الخوارج العجاردة. يثبتون القدر.

٦٨ ـ **الخشبية (أو الصرخابية)**: من الشيعة الزيدية، ينسبون الى صرخاب الطبري. وسموا بالخشبية لخروجهم على السلطان مسلحين بالخشب! . . (أنظر الصرخابية).

٦٩ ـ **الخطابية**: من غلاة الشيعة. أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب، مولى بني أسد، وهم مشبهة، ادعوا نبوة الأئمة، وأنه لابد من رسول صامت مع الرسول الناطق، وأن محمداً هو الناطق وعلي هو الصامت، ولقد ثاروا بالكوفة، وقتلهم والي العباسيين عيسى بن موسى سنة ١٤٣ هـ.

٧٠ ـ **الخلالية**: من الشيعة العباسية. ينسبون الى أبي سلمة الخلال.

٧١ ـ **الخلفية**: من الشيعة الزيدية. ينسبون الى خلف بن عبد الصمد.

٧٢ ـ **الخلفية**: من الخوارج العجاردة. ينسبون الى خلف. وهم يثبتون الصفات، ويخالفون الخوارج الميمونية في القدر.

٧٣ ـ **الخياطية**: من المعتزلة. ينسبون الى أبي الحسين بن أبي عمرو الخياط. وهم يسمون المعدوم شيئاً.

« د »

٧٤ ـ **الدروز**: من الشيعة الاسماعيلية الفاطمية، بدأت دعوتهم على يد: درزي، وحمزة بن علي بن أحمد، زمن الحاكم بأمر الله ثم انتشرت في سوريا ولبنان.

٧٥ ـ الدكينية: من الشيعة الزيدية. ينسبون الى الفضل بن دكين.

« ر »

٧٦ ـ الراجعة: من الخوارج. وهم الذين رجعوا عن مقالة صالح بن مسرح.

٧٧ ـ الراوندية: الشيعة العباسية. وهم الذين يجعلون الامامة ـ نصاً أو وراثة ـ في بني العباس: العباس بن عبد المطلب، فعبد الله بن العباس، فعلي بن عبد الله، حتى المنصور العباسي، وهم ينسبون الى القاسم بن راوند.

٧٨ ـ الرزامية: من الشيعة العباسية. وهم الذين تبعوا « رزام »، فانشقوا عن « الأبو مسلمية »، وقالوا ان أبا مسلم الخراساني قد قتل.

٧٩ ـ الرشيدية: من الخوارج العجاردة. وهم انشِقاق على الثعالبة، ينسبون الى « رشيد ». وانفردوا بآراء في الزكاة.

« ز »

٨٠ ـ الزرارية: من المشبهة. ينسبون الى زرارة بن أعين بن أبي زرارة.

٨٢ ـ الزريتية: من المرجئة. فرع من الكرامية. وهم مشبهة مجسمة.

٨٣ ـ الزعفرانية: قالوا: كلام الله غيره، وكل ما هو غيره فهو مخلوق، ومن قال ان كلام الله غير مخلوق فهو كافر.

٨٤ ـ الزيادية: من الخوارج العجاردة. ينسبون الى زياد بن عبد

الرحمن. وهم الذين ثبتوا على قول الثعلبية.

٨٥ ـ الزيدية: من الشيعة. ينسبون الى زيد بن علي. وهم في الأصول على مذهب المعتزلة، وخلافهم معهم في نقاط محددة من باب الامامة. وهم عدة فرق.

« س »

٨٦ ـ السبئية: من غلاة الشيعة. ينسبون الى عبد الله بن سبأ. وهم ينكرون موت علي بن أبي طالب، ويقولون بالرجعة، أي رجعة الأموات الى الدنيا.

٨٧ ـ السليمانية: من الشيعة الزيدية. ينسبون الى سليمان بن جرير الزيدي، يقولون ان الامامة شورى، وسبيلها العقد، ويصححون امامة أبي بكر وعمر، لأن الأمة تأولت فبايعت لهما، وعدلت عن علي بن أبي طالب.

٨٨ ـ السميطية: نسبة الى يحيى بن أبي سميط.

٨٩ ـ السنوسية: حركة صوفية، ذات طابع عربي، ناهضت الزحف الاستعماري على المغرب العربي، أسسها بليبيا محمد بن علي، السنوسي (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م).

« ش »

٩٠ ـ الشافعية: من أصحاب الحديث. ينسبون الى محمد بن أدريس الشافعي.

٩١ ـ الشبيبيّة : من المرجئة ينسبون الى محمد بن شبيب.

٩٢ ـ الشبيبية: من الخوارج البيهسية. ينسبون الى أبي الصحارى شبيب بن يزيد النجراني، الذي حارب الحجاج بن يوسف، زمن عبد الملك

ابن مروان. وهم يجوزون امامة المرأة. ويقولون بالارجاء.

٩٣ ـ الشريعية: من غلاة الشيعة. ينسبون الى « الشريعي »، ويقولون بحلول الله في خمسة: النبي، وعلي، والحسن، والحسين، وفاطمة، فهم عندهم آلهة. وقالوا ان أضداد هؤلاء الخمسة هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان ومعاوية، وعمرو بن العاص.

٩٤ ـ الشعيبية: من الخوارج العجاردة، ينسبون الى « شعيب ». ينكرون القدر، وهم انشقاق على الميمونية.

٩٥ ـ الشمراخية: من الخوارج. ينسبون الى عبد الله بن شمراخ.

٩٦ ـ الشمرية: من المرجئة. ينسبون الى أبي شمر سالم بن شمر.

٩٧ ـ الشميطية: من الشيعة الامامية. ينسبون الى يحيى بن شميط ـ (أو ابن أشمط)! قالوا ان الامام بعد جعفر هو ابنه محمد.

٩٨ ـ الشيبانية: من الجبرية. ينسبون الى شيبان بن سلمة. قالوا بالجبر ونفي القدر.

٩٩ ـ الشيبانية: من الخوارج العجاردة. وهم انشقاق على الثعالبة، ينسبون الى « شيبان »، الذي خرج أيام أبي مسلم الخراساني، وتعاون معه ضد بني أمية.

« ص »

١٠٠ ـ الصالحية: من المرجئة. ينسبون الى أبي الحسين صالح بن عمرو الصالحي. قالوا: ان الايمان هو المعرفة بالله فقط ـ وهذه المعرفة هي الحب له والخضوع له ـ والكفر هو الجهل به فقط. وهم يجمعون بين القدر والارجاء، ويجوزون قيام العلم والقدرة والسمع والبصر مع الميت،

ويجوزون خلو الجوهر عن الأعراض كلها.

١٠١ ـ **الصباحية**: من المجبرة. ينسبون الى أبي الصباح بن معمر.

١٠٢ ـ **الصرخابية**: من الشيعة الزيدية. ينسبون الى صرخاب الطبري. ويسمون الخشبية (أنظر الخشبية).

١٠٣ ـ **الصفرية**: من الخوارج. ينسبون الى زياد بن الأصفر. وهم انشقاق على النجدية. وعنهم تفرعت فرق الخوارج غير الأزارقة والأباضية والنجدات. وهم يجوزون التقية في القول دون العمل، ولا يكفرون القعدة عن القتال اذا كانوا موافقين في الدين والاعتقاد.

١٠٤ ـ **الصلتية**: من الخوارج العجاردة، ينسبون الى عثمان بن أبي الصلت. وهم يبرؤون من الأطفال حتى يدركوا فيدعون الى الاسلام فيقبلونه.

« ض »

١٠٥ ـ **الضحاكية**: من الخوارج. ينسبون الى الضحاك بن قيس الشاري انشقوا عن متوقفة الأباضية، الذين توقفوا في ايلام أطفال المشركين بالله لآخرة.

١٠٦ ـ **الضرارية**: ينسبون الى ضرار بن عمرو، وهو من المعتزلة، انفرد عنهم بآراء منها: أن الفعل الانساني شركة بين الله وبين الانسان، فالله خلقه، والانسان اكتسبه، فالله فاعل لأفعال العباد في الحقيقة، وهم فاعلون لها في الحقيقة!..

« ط »

١٠٧ ـ **الطيارية**: من الشيعة الغلاة. يقولون بالتناسخ. وينسبون الى

جعفر الطيار (أنظر: الجناحية).

« ظ »

١٠٨ ـ **الظاهرية**: ينسبون الى أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني (٢٧٠ هـ ـ ٨٨٣ م)، وهم يقفون عند ظواهر النصوص، وينكرون التأويل، ويرفضون الرأي والقياس.

« ع »

ـ **العابدية**: من المرجئة. فرع من الكرامية. وهم مشبهة مجسمة.

١٠٩ ـ **العاذرية**: هم الذين عذروا الناس بالجهالة في الفروع.

١١٠ ـ **العبيدية**: من المرجئة. ينسبون الى عبيد المكبت. قالوا: ان مادون الشرك مغفور لا محالة، وهم مشبهة، يقولون: ان الله على صورة الانسان، لأنه ـ كما قال ـ قد خلق آدم على صورته.

١١١ ـ **العبيدية**: الفاطمية، من الشيعة الاسماعيلية، سموا بذلك نسبة الى أول خلفائهم أبي عبيد الله المهدي.

١١٢ ـ **العجاردة**: من الخوارج ينسبون الى عبد الكريم بن عجرد.

١١٣ ـ **العطوية**: من الخوارج. ينسبون الى عطية بن الأسود الحنفي. وهم انشقاق على أصحاب نجدة بن عامر.

١١٤ ـ **العقبية**: من الشيعة الزيدية. ينسبون الى عبد الله بن محمد العقبي. قالوا بصلاحية الامامة في ولد علي، ولم يحصروها في ولد الحسن والحسين.

١١٥ ـ **العليائية**: من غلاة الشيعة. ينسبون الى العلياء بن ذراع

السدوسي. وهم يفضلون علي بن أبي طالب على النبي.

١١٦ ـ العمارية: من الشيعة الامامية. ينسبون الى عمار بن موسى الساباطي. يقولون إن الإمام بعد جعفر بن محمد هو ابنه عبد الله. ويسمون (الفطحية).

١١٧ ـ العمرية: من المعتزلة. ينسبون الى عمرو بن عبيد.

١١٨ ـ العميرية: من غلاة الشيعة. وهم فرع من الخطابية. ينسبون الى عمير بن بيان العجلي، أقاموا لهم مجتمعاً منعزلاً بالكناسة، احدى محلات الكوفة. ولقد قتل امامهم على يد يزيد بن عمر بن هبيرة.

١١٩ ـ العوفية: من الخوارج البيهسية. يقولون بكفر الرعية لكفر امامها، وهم فرقتان اختلفتا في البراءة من الراجعين من دار هجرتهم الى القعود بدار مخالفيهم.

«غ»

١٢٠ ـ الغرابية: من غلاة الشيعة. سموا بذلك لقولهم ان علي بن أبي طالب كان أشبه بالنبي من الغراب بالغراب.

١٢١ ـ الغسانية: من المرجئة. ينسبون الى غسان الكوفي. قالوا ان الايمان هو معرفة الله ورسوله والاقرار بما أنزل الله، مما جاء به الرسول في الجملة دون التفصيل. وأن الايمان يزيد وينقص.

١٢٢ ـ الغلاة: كل الشيعة الذين غلوا في علي بن أبي طالب. وهم فرق عدة.

١٢٣ ـ الغمامية: من غلاة الشيعة. سموا بذلك لقولهم ان الله ينزل، كل ربيع، الى الأرض في غمام، فيطوف الدنيا.

١٢٤ ـ **الغيلانية**: من المرجئة. ينسبون الى غيلان بن خرشة الضبي. قالوا: ان الايمان هو المعرفة الثانية بالله، أي المعرفة التي تأتي ثمرة النظر والاستدلال، لا المعرفة الأولى، أي الاضطرارية، والمحبة والخضوع له، والاقرار بما جاء به الرسول من عند الله.

« ف »

١٢٥ ـ **الفديكية**: من الخوارج. ينسبون الى أبي فديك. وعم انشقاق على النجدات.

١٢٦ ـ **الفضلية**: من الخوارج، ينسبون الى الفضل بن عبد الله.

١٢٧ ـ **الفطحية**: من الشيعة لامامية ـ أنظر (العمارية).

« ق »

١٢٨ ـ **القائلون بألوهية علي**: من غلاة الشيعة. ألهوا علي بن أبي طالب، وكذبوا النبي، وزعموا أنه ادعى الأمر لنفسه على حين أن علياً قد وجهه ليبين أمره ويدعو اليه.

١٢٩ ـ **القدرية**: الذين يثبتون القدر. . والمعتزلة يطلقون هذا الاسم على الجبرية، لأنهم يثبتون القدر لله دون الانسان، والجبرية يطلقونه على المعتزلة لأنهم يثبتون القدر للانسان.

١٣٠ ـ **القرامطة**: من الشيعة الاسماعيلية. وهم أبرز تياراتها الثورية، يقولون ان محمد بن اسماعيل هو الامام بعد جعفر بن محمد، وأنه حي، وهو المهدي.

١٣١ ـ **القضائية**: من المشبهة. سموا بذلك لقولهم ان الله هو القضاء.

١٣٢ ـ القطعية: من الشيعة الامامية. ويسمون الاثنى عشرية. وسموا بالقطعية لأنهم قطعوا بموت موسى بن جعفر بن محمد بن علي. وهم جمهور الشيعة. . (أنظر: الاثنى عشرية).

« ك »

١٣٣ ـ الكاملية: من غلاة الشيعة. ينسبون الى أبي كامل. وهم يكفرون الصحابة لعدولهم عن علي بن أبي طالب، ويطعنون في علي لأنه ترك طلب حقه!.

١٣٤ ـ الكرامية: من المرجئة. ينسبون الى محمد بن كرام، السجستاني. قالوا: ان الايمان هو: الاقرار والتصديق باللسان دون القلب، ولذلك فالمنافقون، عندهم، مؤمنون على الحقيقة. والكفر، عندهم، هو الجحود والانكار باللسان. وهم مشبهة مجسمة. ولقد انقسموا فرقاً بلغت الاثنتي عشرة، أهمها: العابدية، والنونية، والزرينية، والاسحاقية، والواحدية، والهيصمية.

١٣٥ ـ الكربية: من الشيعة الكيسانية. ينسبون الى أبي كرب الضرير. وهم يقولون بحياة محمد بن الحنفية، في جبل رضوى، وأنه هو المهدي المنتظر.

١٣٦ ـ الكلابية: من المشبهة. ينسبون الى محمد بن كلاب.

١٣٧ ـ الكيالية: من الشيعة الامامية، ينسبون الى أحمد بن الكيال. قالوا بامام مستور بعد جعفر الصادق.

١٣٨ ـ الكيسانية: الشيعة الذين ينسبون الى كيسان، مولى علي بن أبي

طالب، والامامة عندهم في محمد بن الحنفية. وهم فروع تصل الى احدى عشرة فرقة.

« م »

١٣٩ ـ **الماتريدية**: نسبة الى أبي منصور الماتريدي (٣٣٣ هـ ـ ٩٤٤ م). والفرق بين مقالاتهم ومقالات الأشعرية ليس جوهرياً. والماتريدي حنفي المذهب الفقهي. على حين كان الأشعري شافعياً.

١٤٠ ـ **المالكية**: من أصحاب الحديث، ينسبون الى إمام المدينة: مالك ابن أنس.

١٤١ ـ **المباركية**: من الشيعة الاسماعيلية. ينسبون الى « المبارك ». ويقولون إن إسماعيل بن جعفر الصادق مات في حياة أبيه، فصارت الإمامة لابنه محمد.

١٤٢ ـ **المبيضة**: من المشبهة. سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم، وذلك مخالفة للعباسيين المسودة. وقائدهم هو المقنع هاشم بن الحكم المروزي.

١٤٣ ـ **المتبرئة**: من الشيعة الزيدية يتبرؤون من أبي بكر وعمر. ولا ينكرون الرجعة.

١٤٤ ـ **المجسمة**: هم المشبهة، الذين يتصورون الذات الالهية جسماً، عن طريق ما يثبتون لها من صفات زائدة على الذات.

١٤٥ ـ **المجهولية**: من الخوارج العجاردة. وهم يثبتون القدر للانسان، ويقولون ان من علم بعض أسماء الله لم يجهله.

١٤٦ ـ **المحمدية**: من الشيعة. وهم الذين يقولون بامامة محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية).

١٤٧ ـ **المختارية**: من الشيعة الكيسانية، ينسبون الى المختار بن أبي عبيد الثقفي.

١٤٨ ـ **المرجئة**: هم القائلون بتأخير العمل عن الايمان وفصله عنه، وبأنه لا تضر مع الايمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

١٤٩ ـ **المريسية**: من المرجئة. ينسبون الى بشر المريسي. قالوا ان الايمان هو: التصديق بالقلب واللسان جميعاً.

١٥٠ ـ **المزدارية**: من المعتزلة. ينسبون الى أبي موسى عيسى بن صبيح المزدار.

١٥١ ـ **المشبهة**: هم الذين يثبتون لله صفات زائدة على الذات، على نحو ينفي التنزيه والتجريد عن الذات الالهية، الأمر الذي يؤدي الى التشبيه والتجسيد للذات الالهية، من نحو القول بأنه جسد، وله يد وعين.. الخ...

١٥٢ ـ **المعاذية**: من المرجئة، ينسبون الى أبي معاذ التومني ـ (أنظر: التومنيّة).

١٥٣ ـ **المعبدية**: من الخوارج العجاردة. ينسبون الى «معبد»، وهم الانشقاق عن الثعالبة، ولقد انفردوا بآراء في الزكاة.

١٥٤ ـ **المعتزلة**: أصحاب واصل بن عطاء، القائلون بالأصول الخمسة: العدل، والتوحيد، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٥٥ ـ **المعطلة**: مصطلح يطلقه أهل الاثبات، أي اثبات الصفات للذات الالهية، على الذين ينفونها، أو يبالغون في نفيها، اذ يرى المثبتون أن في ذلك تعطيلاً لفعالية الذات الالهية وفعلها.

١٥٦ ـ المعلومية: من الخوارج العجاردة، يثبتون القدر للانسان، وأن الاستطاعة مع الفعل، ويقولون ان من لم يعلم الله بجميع أسمائه فهو جاهل به.

١٥٧ ـ المعمرية: من المعتزلة. ينسبون الى معمر بن عباد السلمي.

١٥٨ ـ المعمرية: من غلاة الشيعة، وهم فرع من الخطابية.. قالوا ان الامامة بعد أبي الخطاب هي لمعمر. وهم يقولون بالتناسخ، وان الجزاء، ثواباً وعقاباً، هو في الدنيا، أي ما فيها من نعيم وشقاء ـ ويسمون كذلك (اليعمرية).. انظر (اليعمرية)..

١٥٩ ـ المغيرية: من غلاة الشيعة، ينسبون الى المغيرة بن سعيد البجلي، وهم مجسمة، ثاروا بالكوفة ضد بني أمية سنة ١١٩ هـ، فأحرقهم خالد بن عبد الله القسري. ويقال انهم كانوا يدعون الى امامة محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية).

١٦٠ ـ المفضلية: من غلاة الشيعة الامامية، وهم فرع من الخطابية، ينسبون الى المفضل بن عمر، وكان صيرفياً، ويسمون، أيضاً (القطعية) لقطعهم بوفاة موسى بن جعفر الصادق.

١٦١ ـ المفوضية: من غلاة الشيعة، قالوا ان الذي خلق الدنيا هو النبي، لأن الله فوض اليه كل الأمور، وأقدره على الخلق، وبعضهم يجعل ذلك لعلي بن أبي طالب، ويرون أن الأئمة ينسخون الشرائع، وينزل عليهم الوحي، ويأتون المعجزات.

١٦٢ ـ المقاتلية: من المشبهة. ينسبون الى مقاتل بن سليمان.

١٦٣ ـ المكرمية: من الخوارج العجارة. ينسبون الى أبي مكرم العجلي، وهم انشقاق على الثعالبة. يقولون بكفر تارك الصلاة، لا لتركها،

بل لجهله بالله، وكذلك قولهم في مرتكبي الكبائر.

١٦٤ ـ الممطورة: أنظر (المفضلية) و (الواقفية).

١٦٥ ـ المنصورية: من غلاة الشيعة، ينسبون الى أبي منصور العجلي، وهو بدوي سكن الكوفة. قيل انه ادعى النبوة، وانه صاحب التأويل على حين كان الرسول صاحب التنزيل. ولقد قتل أبو منصور وصلب على يد يوسف بن عمر الثقفي، ابن عم الحجاج ـ الذي ولي العراق، بعد اليمن سنة ١٢٠ ـ هـ ـ فخلفه ابنه الحسين بن أبي منصور، الذي لقي ذات المصير على يد المهدي العباسي.

١٦٦ ـ المهدية: طريقة صوفية، نشأت بالسودان، يقودها محمد أحمد ابن عبد الله (١٨٤٣ ـ ١٨٨٥ م) الذي، ادعى أنه «المهدي المنتظر»، وقاد أتباعه، والسودان، في صراع ضد الاستعمار الغربي.

١٦٧ ـ الموسائية: (أنظر: المفضلية ـ والواقية).

١٦٨ ـ الموسوية: من الشيعة الامامية. قالوا ان الامامة بعد جعفر الصادق هي لابنه موسى، نصا عليه بالاسم.

١٦٩ ـ الميمونية: من الخوارج العجاردة، ينسبون الى ميمون بن عمران، من أهل بلخ. يقولون بالقدر، على مذهب المعتزلة، وان الله يريد الخير دون الشر، وأطفال الكفار في الجنة.

« ن »

١٧٠ ـ الناووسية: من الشيعة الامامية ينسبون الى عجلان بن ناووس ـ (أبو عبد الله بن ناووس ـ من أهل البصرة). يقولون إن جعفر بن محمد حي لم يمت، وأنه هو المهدي.

١٧١ ـ **النجارية**: من المرجئة. ينسبون الى الحسين بن محمد النجار. قالوا ان الايمان هو جماع المعرفة بالله، وبرسله، وفرائضه المجتمع عليها، والخضوع له بجميع ذلك، والاقرار باللسان.

١٧٢ ـ **النجدية**: من الخوارج، ينسبون الى نجدة بن عامر الحنفي، وهم انشقاق على الأزارقة، يقولون ان من الدين ما لا تسع جهالته، وهو: معرفة الله، ورسله، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم، وتحريم الغصب، والاقرار بما جاء من عند الله جملة. . ومنه ما تسع جهالته، وهو ما عدا ذلك حتى تقوم فيه الحجة.

١٧٣ ـ **النظامية**: من المعتزلة. ينسبون الى ابراهيم بن سيار النظام.

١٧٤ ـ **النصيرية**: من غلاة الشيعة ـ يؤلهون الأئمة، ولكنهم يختلفون في كيفية حلول اللاهوت في ناسوت الأئمة.

١٧٥ ـ **النعمانية**: من الشيعة. ينسبون الى أبي جعفر محمد بن النعمان، الذي يلقبه أهل السنة: شيطان الطاق، ويلقبه الشيعة: مؤمن الطاق.

١٧٦ ـ **النعيمية**: من الشيعة الزيدية. ينسبون الى نعيم بن اليمان. يفضلون علي بن أبي طالب، ويصححون امامة أبي بكر وعمر، ولكنهم يقولون بخطأ الأمة لتقديمها المفضول على الأفضل.

١٧٧ ـ **النميرية**: من غلاة الشيعة، ينسبون الى زعيمهم «النميري»، وهم فرع من الشريعية. يقولون، مثلها، بالحلول، وبأن الله قد حل في «النميري» كما حل في النبي، وعلي، والحسن، والحسين، وفاطمة.

١٧٨ ـ **النوابت**: مصطلح يطلقه المعتزلة على (أهل الحديث ـ أصحاب الحديث) ـ لأنهم نبتوا ـ أي طرأت فرقتهم ـ على الحياة الفكرية، التي ارتاد

المعتزلة وأهل العدل والتوحيد صياغة معالمها ممثلة في علم الكلام.

١٧٩ ـ **النونية**: من المرجئة، فرع من الكرامية.

« هـ »

١٨٠ ـ **الهاشمية**: من الشيعة الكيسانية. قالوا ان الامامة بعد محمد بن الحنفية هي لابنه أبي هاشم. وهم يقولون أن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ولكل مثال في هذا العالم حقيقة.

١٨١ ـ **الهذيلية**: من المعتزلة، ينسبون الى أبي الهذيل العلاف.

١٨٢ ـ **الهشامية**: من المعتزلة، ينسبون الى هشام بن عمرو الفوطي. قالوا: الجنة والنار لم تخلقا بعد، وقالوا لا دلالة في القرآن على حلال وحرام، والامامة لا تنعقد مع الاختلاف عليها.

١٨٣ ـ **الهشامية**: من الشيعة الامامية. ينسبون الى هشام بن الحكم. وهم مشبهة.

١٨٤ ـ **الهيصمية**: من المرجئة، وهم فرع من الكرامية. مشبهة مجسمة.

« و »

١٨٥ ـ **الواحدية**: من المرجئة، فرع من الكرامية. وهم مشبهة مجسمة.

١٨٦ ـ **الواصلية**: من المعتزلة. ينسبون الى أبي حذيفة واصل بن عطاء.

١٨٧ ـ **الواقفية**: من الشيعة الامامية، ينسبون الى المفضل بن جعفر.

يقولون ان موسى بن جعفر حي، وأنه هو المهدي ـ (وتسمى: الممطورة ـ والمفضلية ـ والموسائية).

١٨٨ ـ **الوهابية**: حركة تجديد ديني، على أساس سلفي، قادها في نجد محمد بن عبد الوهاب، في القرن الثامن عشر الميلادي، وهي امتداد لمذهب أهل الحديث، وخاصة أحمد بن حنبل، وابن تيمية.

« ي »

١٨٩ ـ **اليـاروسية**: من الشيعـة الامـاميـة. تنسب الى ابن يـاروس. تفرعت عن الجعفرية. قالوا ان جعفر بن محمد حي، وأنه هو المهدي.

١٩٠ ـ **اليزيدية**: من الخوارج الأباضية، ينسبون الى يزيد بن أنيسة. يخالفون الحفصية في الاكفار والتشـريك، ويتـولون الخـوارج قبل نـافع بن الأزرق، ويبرئون ممن بعده.

١٩١ ـ **اليزيدية**: غلاة، يأتي مذهبهم مـزيجاً من الاسـلام والديـانات الفارسية القديمة، يسكنـون شمال العـراق، أساسـاً، والبعض يقول انهم ينسبون الى يزيد بن معاوية.

١٩٢ ـ **اليعفورية**: من غلاة الشيعة، ينسبون الى محمد بن يعفور.

١٩٣ ـ **اليعقوبية**: من الشيعة الزيدية. ينسبون الى « يعقوب ». وهم يتولون أبا بكر وعمر. وينكرون الرجعة.

١٩٤ ـ **اليعمرية**: من غلاة الشيعة، وهم فرع من الخطابية ـ (أنظر: المعمرية).

١٩٥ ـ **اليـونسية**: من الشيعـة. ينسبون الى يـونس بن عبـد الـرحمن القمي. وهم مشبهة.

١٩٦ ـ اليونسية: من المرجئة. ينسبون الى يونس السمري. قالوا ان الايمان هو اجتماع المعرفة بالله، والخضوع له، وهو ترك الاستكبار عليه، والمحبة له.

* * *

هذه هي فرق الاسلام.. الأصول منها والفروع، الكبرى والصغرى.. ما تبلور منها لأسباب سياسية واجتماعية، وما نشأ في الجدل الذي احتدم حول الالهيات ـ جمعناها، وصنفناها أبجدياً، لتكون دليلاً للقارىء الباحث في تراث حضارة العرب والمسلمين.

المصادر

ابن حزم :(الفصل في الملل والأهواء والنحل) طبعـةالقاهرة سنة١٣٢١ هـ.

ابن حنبل: (المسند) طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ.
ابن ماجه: (السنن) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي -طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م.
أبو داود: (السنن) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م.
الأشعري: (مقالات الاسلاميين) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م.
البغدادي: (الفرق بين الفرق) طبعة بيروت. دار الآفاق الجديدة.
الترمذي: (السنن). تحقيق أحمد محمد شاكر. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م.
التهانوي: (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة الهند.
الجرجاني: (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨).
الخوارزمي: (مفاتيح العلوم) طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ.
الشهرستاني: (الملل والنحل) طبعة القاهرة ـ على هامش (الفصل) لابن حزم ـ سنة ١٣٢١ هـ.
القاضي عبد الجبار: (المغني في أبواب التوحيد والعدل). طبعة القاهرة.
(فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس

سنة ١٩٧٢ م.
عبد الكريم عثمان (دكتور): (قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد) طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م.
محمد فؤاد عبد الباقي: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة. دار الشعب.
المقريزي: (الخطط) طبعة دار التحرير. القاهرة.
النوبختي: (كتاب فرق الشيعة) تحقيق. هـ. ريتر. طبعة استانبول سنة ١٩٣١ م.
ونسنك (أ. ي) وآخرون: (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م.

١ - المعتزلة

تمهيد

أشاعت الدولة الأموية وأظهرت، في الحياة الفكرية بمجتمعها، عقيدتي: « الجبر » و « الارجاء ».. تبرر بالأول مظالمها وما أحدثته ومثلته من تحول بالسلطة السياسية نقلها من « خلافة شوروية » الى « ملك وراثي وعضود ».. وتحاول أن تفلت بالثانية ـ عقيدة الارجاء ـ من ادانة المعارضة وحكمها على ايمان هذه الدولة وعقيدة حكامها، بعد أن ارتكبوا تلك المظالم وأحدثوا هذه التحولات..

وكانت المعارضة التي تصدت، من مواقع مختلفة ومنطلقات متمايزة وعلى مستويات متعددة وبأساليب متنوعة، قد تبلورت في تيارات فكرية وسياسية ثلاثة:

١ - الخوارج: وهم ثوار أعلنوا ثورتهم المستمرة، تقريباً، ضد الأمويين، وعلى مختلف الجبهات وبكل الوسائل المشروعة لدى الثوار.. بالسيف والفكر على السواء.. (أنظر: الخوارج.. وأنظر كذلك: الثورة).

٢ - الشيعة: الذين زادهم اضطهاد بني أمية لآل البيت حبّاً لهم وتقديساً، حتى لقد تحول هذا الحب الى عقيدة صوفية جعلت الفناء في الأئمة غاية يسعى اليها المتشيعون.. لكن هذا الحب والتقديس قد وقف عند حدود الدين والتدين، عندما كفت الشيعة يدها ـ تحت قيادة امامها

جعفر الصادق (٨٠ ـ ١٤٨ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٥ م) ـ عن الثورة كأداة للمعارضة وسبيل للتغيير، ذلك أن المحن التي وقعت بهم، والتي كانت مأساة الحسين في كربلاء تجسيداً لها، ثم النهاية المأسوية لحركاتهم الانتقامية ـ انتفاضة « التوابين » (٦٥ هـ ٦٨٤ م) وثورة الكيسانية بقيادة المختار الثقفي (١ ـ ٦٧ هـ ٦٢٢ ـ ٦٨٧ م) ـ قد جعلت هذا التيار من تيارات المعارضة يلزم « التقية »، وينهى عن « العنف والثورة »، ويبشر بالخلاص القادم المرهون بمشيئة السماء ومعونتها. . ولقد عبر جعفر الصادق عن هذا الموقف عندما حذر أنصاره من طريق الثورة فقال لهم: « ان بني أمية يتطاولون على الناس، حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها!وهم يستشعرون بغض أهل البيت، ولا يجوز أن « يخرج » ـ (يثور) ـ أحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملكهم! »[1].

٣ ـ **أهل العدل والتوحيد**: وهو تيار فكري وسياسي أكثر منه فرقة منضبطة، وخاصة في جانب « التنظيم ». . ولقد انخرط في هذا التيار ـ الذي كان الحسن البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) أبرز أئمته وقادته ـ كل الذين تصدوا لعقيدة « الجبر » التي أظهرها الأمويون، فعارضوها باظهار موقف الاسلام المنحاز الى حرية الانسان واختياره وقدرته واستطاعته، ومن ثم مسؤوليته عن أفعاله. . كما تصدوا كذلك للأفكار الغريبة عن نقاء عقيدة التوحيد الاسلامية، فأظهروا في مقابلها الفكر التنزيهي والتجريدي الذي يبتعد بالتصور الاسلامي للذات الالهية عن أية شبهة أو مشابهة للمحدثات. . فكل ما خطر على بالك، فليس الله بمشبه شيئاً من ذلك! . . وكانت مصادر الأفكار غير التنزيهية التي تصدى لها أهل العدل والتوحيد مختلفة ومتعددة. . فهناك اللاهوت المسيحي القائل بالحلول

---

(١) الشهرستاني (الملل والنحل) جـ ٢ ص ٨٥، طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

والتجسد والتثليث. . وهناك « النصوصيون » الذين وقفت بهم مداركهم وقدراتهم العقلية عند ظواهر النصوص التي توهم « بالتشبيه ». . وهناك العامة الذين لا يستطيعون تصور ذات إلهية إلا إذا كانت على مثال، ولو تقريبي، مما هو مألوف لهم في العالم المشهود!

ولم يقف تيار « أهل العدل والتوحيد » عند المعارضة الفكرية لفكر الدولة الأموية، ذلك أن طلائع « الرواة والمؤرخين وكتاب السيرة » الذين ارتادوا هذا الفن في حضارتنا كان أغلبهم من علماء هذا التيار، فعرضوا في فنهم هذا بالتقويم لأحداث الصراع الذي نشب على السلطة في صدر الاسلام، ولما أحدثه الأمويون في طبيعة السلطة من تغييرات، ولما تعيشه الأمة من احداث، ومن ثم دخلوا الى ميدان السياسة من هذا الباب. .

ولما أثارت الخوارج - وخاصة الأزارقة - في النصف الثاني من القرن الهجري الأول - قضية الحكم على عقائد المخالفين، والحكام منهم بالذات، وحكموا بكفرهم - (أنظر: « المرجئة » و « الخوارج ») - وقف أهل العدل والتوحيد من هذه القضية موقفاً أقل غلواً، فقالوا: ان مرتكبي الكبائر، المصرّين عليها، وغير التائبين منها هم « فسقة منافقون »، وليسوا بكفار. .

وفيما يتعلق بقضية « الثورة »، وأسلوب التغيير والازالة للمظالم، وقف هذا التيار مع « الثورة » كطريق من طرق التغيير، ولكن بشروط حددها الحسن البصري، أهمها: « التمكن »، أي الامتناع عن الثورة حتى يبلغ الثوار درجة من « التمكن » تضمن لهم الانتصار. . فلقد كان الحسن البصري، ضمن ما كان، عالماً في تاريخ الثورات التي قامت ثم قمعت، وفي تاريخ الحروب التي خاضها الثوار وقضى عليهم فيها الأمويون، ولذلك كانوا يصفونه بأنه: عالم في « الفتن » - (الثورات) - « والدماء » - (أي الحروب) -!. . ومن علمه هذا استخلص الدروس التي جعلته يضع

« التمكن » شرطاً لاشعال « الثورة ». . ولكن الاطار التنظيمي المرن، وأحياناً الفضفاض، لتيار أهل العدل والتوحيد قد جعل الكثير من أنصاره، خلافاً لدعوة الحسن البصري، ينخرط في العديد من الثورات التي فشلت مثل الثورة التي قادها عبد الرحمن بن الأشعث (٨٥ هـ ٧٠٤ م) ضد الحجاج بن يوسف وبني أمية على عهد عبد الملك بن مروان. .

ونحن نستطيع أن نجمل أهم الأصول الفكرية لهذا التيار في:

١ ـ **العدل**: بما يعنيه من حرية الانسان واختياره ومسؤوليته عن أفعاله المخلوقة له.

٢ ـ **والتوحيد**: بما يمثله من نقاء بلغ بعقيدة التوحيد الاسلامية ذروة التنزيه والتجريد.

٣ ـ **والقول «بنفاق» مرتكب الكبيرة**: بما يعنيه من موقف وسط بين افراط الخوارج عندما كفروه، وتفريط المرجئة عندما صححوا ايمانه ودعوا الى ارجاء البحث في عقيدته وتركه للباريء سبحانه يوم الدين. .

ولقد ظل هذا هو حال تيار (أهل العدل والتوحيد) حتى نهاية القرن الهجري الأول. . ثم حدث فيه الانشقاق. .

الانشقاق ـ (الاعتزال)

كان اثنان من الموالي قد نشآ بالمدينة، وتعلما في بيت من بيوت آل البيت ـ بيت محمد بن علي بن أبي طالب ـ (المعروف بابن الحنفية) ـ وزاملا وتتلمذا على اثنين من بنيه.. وهذان الاثنان هما:

* أبو مروان غيلان بن مسلم الدمشقي (الذي استشهد بعد سنة ١٠٦ هـ).. الذي تعلم على الحسن بن محمد بن الحنفية (١٠٠ هـ ٧١٨ م) ثم ذهب الى الشام فقاد تيار العدل والتوحيد هناك..

* وأبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال (٨٠ ـ ١٣١ هـ ٦٩٩ ـ ٧٤٨ م) الذي تعلم على أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (٩٩ هـ ٧١٧ م).. ثم ذهب في سنة ١٠١ هـ الى البصرة حيث يقود الحسن البصري تيار العدل والتوحيد فيها..

وفي البصرة انضم واصل الى الحلقة ـ (المدرسة) ـ التي نظمها الحسن البصري في مسجدها، ولقي علماءها ومن بينهم عمرو بن عبيد (٨٠ ـ ١٤٤ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦١ م)..

ولقد تبع انضمام واصل الى جماعة أهل العدل والتوحيد بالبصرة احتدام الجدل حول الفكر الجديد الذي جاء به معه من المدينة في موضوع مرتكب الكبيرة . . فهو لا يقول بقول الحسن البصري انه مجرد منافق، كما لا يقول بقول المرجئة انه مؤمن، ولا بقول الخوارج: انه كافر، وانما يقول: انه فاسق في منزلة أخرى بين منزلتي الكفر والايمان، وانه خالد مخلد في النار، لكن في درجة من العذاب دون درجة عذاب الكافرين . . ودعوى واصل الجديدة هذه، بمقاييس المعارضة لبني أمية، تمثل موقفاً أكثر تشدداً، ومن ثم أكثر ثورية، من الموقف السابق الذي كان عليه أهل العدل والتوحيد . . وبعد جدل ومناظرات انضم عمرو بن عبيد ـ وكان من أعظم علماء مدرسة الحسن فقهاً وفلسفة وأكثرهم ورعاً وزهداً ـ الى رأي واصل، وانضم معه وبعده كثيرون، حتى لقد مثل ذلك انشقاقاً في صفوف أصحاب الحسن . . والانشقاق هو، بالنسبة لأصحابه، اعتزال عن الأصل، وهكذا سمي هذا الكيان الجديد الذي تبلور في اطار تيار العدل والتوحيد بالمعتزلة، لانشقاقهم ـ اعتزالهم ـ عن التيار العام، الذي ظلوا على علاقات وثيقة به، تتمثل في اتفاقهم معه على ما عدا (المنزلة بين المنزلتين) من الأصول الفكرية التي يبشرون بها بين الناس . .

وخلال العقد الأول من القرن الهجري الثاني كانت مؤلفات واصل بن عطاء قد حددت المعالم الفكرية والأصول العامة لفرقة المعتزلة، فلقد أنجز، قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، ردود المعتزلة على الفرق الأخرى: الخوارج، والجبرية، والمرجئة، والشيعة، والمانوية، ومختلف الفرق المعادية للاسلام[1] . . كما قاد عملية التكوين والبناء لتنظيم المعتزلة على امتداد رقعة

(١) ابن المرتضى (باب ذكر المعتزلة ـ من كتاب المنية والأمل) ص ٢١ تحقيق: توما ارنولد. طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ.

الدولة العربية الاسلامية، كفرقة أخص من التيار العام لأهل العدل والتوحيد.. وهو التنظيم الذي قاد عدداً من الثورات ضد سلطة الأمويين..

ولقد اكتملت للمعتزلة، على عهد واصل، أصول فكرية أربعة أخذوا يتميزون باجتماعهم عليها عن ما عداهم من الفرق والتيارات.. وهي:

١ ـ التوحيد.. (التنزيه)..

٢ ـ العدل.. (قدرة الانسان على أفعاله وخلقه لها).. وكان البعض يسميه: (القدر): بمعنى اثبات القدر (القدرة) للانسان.

٣ ـ المنزلة بين المنزلتين..

٤ ـ القول بخطأ أحد الفريقين في الصراعات التي نشأت على السلطة في صدر الاسلام ـ (عثمان بن عفان.. وخصومه) (علي بن أبي طالب.. وخصومه) ـ مع التوقف والامتناع عن تحديد من هو الطرف المخطىء![1]..

وهذه الأصول الفكرية الأربعة هي التي تطورت، بالتداخل والزيادة، حتى أصبحت خمسة في ظل قيادة أبي الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ ٨٤٩ م) لفرقة المعتزلة، وظلت أعمدة لبنائهم الفكري يجتمعون حولها جميعاً، وان اختلفوا، أحياناً، في الجزئيات والتفاصيل.

---

(١) (الملل والنحل) جـ ١ ص ٦٨ ـ ٧٤.

الأصول الخمسة

وقف المعتزلة بأصولهم الفكرية، التي كونت أعمدة نظريتهم العامة، عند خمسة أصول، هي: العدل.. والتوحيد.. والوعد والوعيد.. والمنزلة بين المنزلتين.. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ووقوفهم عند هذا العدد قد حكمه منهج ولم يخضع للصدفة والاتفاق.. فهم قد رأوها المبادىء الأساسية التي يقع فيها الاختلاف بينهم وبين كل من خالفهم من فرق الاسلام وغيره، فللعدد هنا حكمة وأسباب، وقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (٤١٥ هـ ١٠٢٤ م) - وهو أبرز المتأخرين من أئمتهم - يجيب من سأله:

- « ولم اقتصرتم على هذه الأصول الخمسة؟! ».. فيقول:

- « انه لا خلاف أن المخالف لنا لا يعدو أحد هذه الأصول.. ألا ترى:

* أن خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة قد دخل في: التوحيد؟؟

* وخلاف المجبرة بأسرهم دخل في باب: **العدل؟؟**
* وخلاف المرجئة دخل في باب: **الوعد والوعيد؟؟**
* وخلاف الخوارج دخل تحت: **المنزلة بين المنزلتين؟؟**
* وخلاف الامامية دخل في باب: **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟؟** »[1].

وهذا المنهج الذي قرره المعتزلة في تحديد ماهية الأصول وعددها يجعلنا نرفض ما شاع في كتب المقالات والفرق التي لم يميز أصحابها بين « الأصول » و « المقالات » وبين « الفروع » و «المسائل». فأصحاب هذه الكتب قد ذهبوا، لهذا، الى أن جعلوا المعتزلة عشرين « فرقة »، تبعاً لما بين أعلامها وعلمائها من خلافات واجتهادات في « المسائل والفروع »، فقالوا: إن المعتزلة قد انقسمت الى عشرين « فرقة » هي: الواصلية، والعمرية، والهذيلية، والنظامية، والأسوارية، والمعمرية، والثمامية، والجاحظية، والحايطية، والحمارية، والخياطية، والشحامية، وأصحاب صالح قبة، والمويسية، والكعبية، والجبائية، والبهشمية.. نسبة الى عدد من أعلام المعتزلة وأئمتهم.. فهذه التقسيمات، ان جازت إنما هي مواقف خلافية حول « مسائل وفروع وشبه »، ولكنها وأصحابها تأتي ويأتون في اطار نظرية واحدة وعامة هي أصول المعتزلة الخمسة، تلك الأصول « التي يجمع عليها المعتزلة، وتتفق عليها، مما لا يختار عليه، ولا ريب فيه.. وان كان الاختلاف الواقع بينهم في فروع ذلك، وشبه وردت عليه » - كما يقول القاضي عبد الجبار[2]..

---

(١) القاضي عبد الجبار (شرح الأصول الخمسة) ص ١٢٤ تحقيق: د. عبد الكريم عثمان. طبعة القاهرة سنة١٩٦٥ م.

(٢)(فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٣٢. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.

أصل: العدل:

ويختص مبحث هذا الأصل بقضايا: الحرية والاختيار، بالنسبة للانسان، وقضايا: التعديل والتجوير، بالنسبة للذات الالهية.. والمعتزلة يقررون، بمبحثهم في (العدل)، ان للانسان قدرة وإرادة ومشيئة واستطاعة، قد خلقها له خالقه، وانها تؤدي وظائفها، بشكل مستقل وحر، فيما يتعلق بالأفعال المقدورة للانسان، ومن ثم فإن الانسان هو خالق أفعاله على سبيل الحقيقة لا المجاز، ونسبة هذه الأفعال اليه هي نسبة حقيقية، ومن ثم فإن الجزاء، ثواباً وعقاباً، هو أمر منطقي ليست فيه شبهة جور تلحق بالباري سبحانه، كما هو الحال إذا قال المرء برأي المجبرة في هذا الموضوع..

فهم لم يتحرجوا - كما صنع غيرهم - من وصف الانسان « بالخلق » لأفعاله، لأنهم فرقوا بين « الخلق » وبين « الاختراع » و « الابداع » على غير صورة ومثال سابق، « فالخلق » هو: الفعل والصنع على أساس من « التقدير والتخطيط » السابق على التنفيذ، وهذا مقدور للانسان وواقع منه.. وأوردوا شواهد اللغة التي تصف الانسان بالخلق، من مثل قول العرب: « خلقت الأديم.. وقول زهير بن أبي سلمى:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري »[1]

كما استدلوا بالقرآن على وصف الانسان بأنه « يخلق ».. فالله يقول مخاطباً بشرا: ﴿وتخلقون إفكاً﴾العنكبوت: ٢٢١٧ - ويقول مخاطباً ابراهيم: ﴿وان تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ - المائدة: ١١٠ « - .. كما يتحدث فينبىء عن تعدد من يمكن وصفه بصفة الخالق » فيقول: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ - « المؤمنون: ١٤ ».. يورد المعتزلة ذلك، ثم يجتهدون

---

(١) (شرح الأصول الخمسة) ص ٣٨٠.

لـرد اعتراض خصـومهم، من الجبريـة، الذين يحتجـون بـالقـرآن أيضـاً، وبظواهر الآيات التي تقول: ﴿هل من خالق غير الله؟!﴾ - « فاطر: ٢٢٣ - و ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق؟!﴾ - « النحـل: ١٧ » - فـيقـولـون: ان الاحتجاج بها لا يصح، لأنه احتجاج يقف عند الألفاظ، أما الحقيقة فتقرر لـلانسان فعـلاً وخلقاً. . وبعبـارة القاضي عبـد الجبار في كتـابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل) فإن « التعلق بهاتين الآيتين لا يصح، لأنه كلام من جهـة العبارة، فـأما من جهـة المعنى، فانمـا يجب أن نبين أن العبـد يحدث الشيء، وانه يصح أن يحدثه مقدوراً »[1]. .

كـما بينـوا السر في انصـراف لفظ « الخـالق » الى الله سبحـانـه، دون الانسان، وقالوا: ان « العرف والتعارف » هو الذي قصر هذا اللفظ عـلى الذات الالهية، كما قصر عليها لفظ « رب »، ولقد حدث ذلـك كي ينتفي الايهام بربوبية سواه. . ولما كان مرد ذلـك الى « العرف » فـلا مانـع، على الحقيقـة، يمنـع من وصف غيـره سبحـانـه « بـالخلق ». . وضـربـوا مثـلاً « بـالحركـة » التي تحل محـل السكون فهي فعـل وخلق. . والله هو محـدث الحركة الضرورية. . فهو خالق لها. . والانسان هو فاعلَ الحركـة المكتسبة فهو الخالق لها[2]. .

وكما أثبت المعتزلة للانسان القدرة على « الخلق » أثبتوا له القدرة عـلى « الافناء »، بل قالوا انه يستطيع، بقدرتـه التي خلقها الله، أن يفني فعـل الله. . فـإذا كان السكـون الطبيعي مخلوقـاً لله، فإن الحـركة المكتسبـة التي يخلقهـا الانسان لتحـرك السـاكن هي افنـاء لفعل الله. . واذا كـانت حيـاة

(١) القاضي عبد الجبار (المغني في أبواب التوحيد والعدل) جـ ٨ ص ١٦٣. طبعة القاهرة.
(٢) المصدر السابق: جـ ٨ ص ٢٨٣.

الانسان هي خلق الله، فإن انتحار المنتحر هو افناء لفعل الله![١]. .

ولقد خلص المعتزلة من مباحثهم في أصل (العدل) الى أن أفعال الانسان المقدورة له، ليست مخلوقة لله، وانما هي متعلقة بالانسان، تعلق خلق وايجاد وإحداث، على سبيل الحقيقة، ووفقاً للمقاصد والدواعي التي تجعل الانسان يرجح فعله لها على تركه هذا الفعل، ومن ثم فإنه فاعل لها على سبيل الحقيقة لا المجاز. . فهو عنها مسؤول، وحسابه عليها عدل، فالعدل، عندهم: حرية للانسان، ونفي للجور عن الله. .

٢ ـ أصل: التوحيد:

ـ كما كان المعتزلة فرسان ميدان (الحرية والاختيار) بتقريرهم (أصل العدل)، كانوا فرسان (التنزيه والتجريد)، فيما يتعلق بتصور الذات الالهية، بتقريرهم (أصل التوحيد). . بل لقد بلغوا بهذا التصور قمة «التنزيه» و «التجريد» في الفكر الاسلامي، بل الانساني على الاطلاق. . فهم قد عارضوا فكر سائر الفرق «المشبهة» و «المجسمة» و «الحشوية» الذين عجزت بهم مداركهم فلم يرتقوا بتصور الذات الالهية عن حدود المحدثات والمخلوقات. . واستند المعتزلة في موقفهم هذا الى نقاء عقيدة التوحيد في الإسلام، كما صورتها الآيات المحكمة في القرآن الكريم، ولم تكن معارضتهم قاصرة على «مشبهة» الاسلام، بل شملت كل أصحاب الأديان والفرق والنحل التي تردت في هاوية «التشبيه». .

فهم قد رأوا في عقيدة التثليث المسيحية ثمرة للقول بالتشبيه بلغ حد القول بالحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت، وقرروا أن هذا الموطن من

---

(١) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٨ .

مواطن الفكر هو أصل الخلاف مع اللاهوت المسيحي[١] . . وفي نقدهم لعقيدة التثليث عرضوا لما يؤمن به المسلمون من أن عيسى هو « كلمة الله »، فلم ينكروه، وانما قرروا أن هذه « الكلمة » « مخلوقة »، وليست « قديمة »، وذلك حتى لا يتعدد القدماء . . ورأوا أن القول « بقدم الكلمة » هو الذي قاد اللاهوتيين المسيحيين الى مدارج التشبيه فمزالق التثليث ولذلك اجتهدوا لاغلاق الباب كي لا يسلك المسلمون ذات الدرب، فقالوا بأن كل كلام الله فهو مخلوق، ومنه القرآن الكريم، ومن قبله كل الكتب المنزلة . . وتتبعوا بالنقد فكر المسيحية التشبيهي والتجسيدي عند مختلف فرقها، نساطره وملكانية وغيرهما[٢] . .

كما هاجموا القول بالاثنينية عند « الثنوية » القائلين بالهين، أحدهما للخير والآخر للشر ـ النور والظلمة ـ وتتبعوا فكر « الثنوية » لدى فرقها المختلفة، من: « مزدقية » و « ديصانية » و « مرقيونية » و « ماهانية » و «صيامية» و «مقلاصية»، وكشفوا عن العلاقات بين فكر « ماني » ـ زعيم المانوية ونبيها ـ الذي ادعى النبوة في القرن الثالث الميلادي، بفارس، وبين كل من المجوسية والنصرانية[٣] . . كما كشفوا عن آثار التشبيه المسيحي في معتقدات الفرق الاسلامية المشبهة، من غلاة الشيعة، والمرجئة، مثل فروع: « الرافضة » و « الشيطانية » و « البنانية » و « المغيرية »، و « اليونسية » و « العبيدية » و « الكرامية » وغيرهم . . وبينوا كيف وصل التشبيه ببعض هؤلاء المنتسبين الى الاسلام الى الحد الذي قالوا فيه عن الله انه « جسم، لا كالأجسام، وهو مركب من لحم ودم، لا

---

(١) (شرح الأصول الخمسة) ص ٢٩٢ .

(٢) (المغني) جـ ٥ ص ٨٠ ـ ١٥١ .

(٣) المصدر السابق، جـ ٥ ص ٩ ـ ٧٠ .

كاللحوم والدماء، وله الأعضاء والجوارح، وتجوز عليه الملامسة والمصافحة والمعانقة للمخلصين.. فهو جسم ذو هيئة وصورة، يتحرك ويسكن، ويزول وينتقل! ». الى آخر هذه التصورات التي أثمرها التشبيه والتجسيد والتجسيم[١]..

كما هاجم المعتزلة عقيدة التشبيه عند اليهود أيضاً[٢]..

واذا كانت ردود واصل بن عطاء على هذه الفرق قد بادت، فإن الأهمية التي أعطاها القاضي عبد الجبار للرد على هذه الفرق في موسوعته (المغني في أبواب التوحيد والعدل) تؤكد أن فرقة من فرق الاسلام لم تحارب على هذه الجبهة كما حارب المعتزلة، أهل العدل والتوحيد..

ومن خلال معارضة المعتزلة لهذه الأديان والفرق جميعاً قدموا تصورهم التنزيهي والتجريدي للذات الالهية.. وهو التصور الذي ارتكز على رفض كل ما يوهم تعدد القديم، أو مماثلته لأي محدث من المحدثات.. فكل ما خطر على بالك، ليس الله كمثل شيء من ذلك!.. فقالوا بوحدة الذات والصفات، ورفضوا امكانية رؤية الله، في الدنيا أو الآخرة، لأنها تستلزم التحيز والمكان والجهة، وهي لوازم للتشبيه والتجسيم.. كما كان قولهم بخلق القرآن ثمرة لرفضهم قدم الكلمة، التي أدى القول بها الى شبهة قدم المسيح، ثم التشبيه والتجسيد فالتثليث المسيحي..

---

(١) الأشعري (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ٥ ـ ٧، ٢٣، ٣٩، ١٤١، ١٤٣، طبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م والتهانوي (كشاف اصطلاحات الفنون) ص ٨٠٥، ٧٨٧، ١٠٩٢، ١٥٤٤، ٩٤٩، ١٢٦٦ طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م. والجرجاني (التعريفات) ص ٤٠، ١٩٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م. والفخر الرازي (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) ص ٦٣، ٦٤، ٦٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م ـ والخياط (الانتصار) ص ٧، ٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م.

(٢) (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) ص ٦٣.

٣ ـ أصل: الوعد والوعيد:

وفي هذا المبحث من مباحث أصول المعتزلة الخمسة رفضوا الفكرة الجوهرية لعقيدة فرقة المرجئة، فكرة الفصل ما بين الايمان والعمل.. فقال المعتزلة: ان الوعد يعني: أن من أطاع الله دخل الجنة، وأن وعد الله بذلك صدق لا يمكن أن يتخلف عن الوقوع.. أما الوعيد فانه يعني: أن من عصى الله دخل النار، وخلد فيها أبداً اذا كانت ذنوبه كبائر لم يتب منها قبل مماته، وهذا الوعيد صدق لن يتخلف وقوعه أبداً..

ولما كانت آيات الوعيد، في القرآن، تتناول « الفسقة » من مرتكبي الذنوب الكبائر، المسلمين، كما تتناول الكفار، كانت شاملة للجميع..

وصدق الوعد والوعيد، واستحالة تخلف أحد منهما يعني: أن الحكم على مصير المطيعين، الذين وعدهم الله، وعلى مصير العاصين، الذين توعدهم الله، ليس رجماً بالغيب، ولا تعدياً على اختصاص الذات الالهية، ولا مما يجب « ارجاؤه » لحكم الله المالك يوم الدين..

ولقد رتب المعتزلة على هذا الأصل انكار نفع « الشفاعة » من الرسول أو غيره، يوم القيامة، لأحد من « الفسقة »، وقصروا امكان حدوث هذه « الشفاعة » « للمؤمنين » دون« الفسقة[1]»ومن ثم فإنها لا تفيد الاخراج من النار الى الجنة وانما يقتصر أثرها على رفع درجات المؤمنين في النعيم.. « فالعمل » هو وحده الذي يحسم في قضية مستقبل الانسان ومصيره، والتصور الكلي والعام لهذا المصير ممكن، ما دمنا قد سلمنا بصدق الوعد والوعيد، وقلنا باستحالة تخلف أي منهما..

---

(١) القاضي عبد الجبار (المجموع المحيط بالتكليف) مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (اللوحة ٨٧ ب، ٨٩ أ) من السفر التاسع والعشرين.

وواضح أن لهذا الأصل من أصول المعتزلة طابعاً سياسياً، فلقد كان فكر المرجئة يملي للظالمين ويمد لهم حبال الأمل في النجاة، بينما كان فكر المعتزلة يحكم عليهم بالفسق والخلود في النار، ويقرر، بهذا الأصل، صدق الوعيد لهم، واستحالة تخلفه، ومن ثم استحالة إفلاتهم من الخلود في النار.. على حين كان فكر الخوارج يحكم بكفرهم، كفر نعمة، أو كفر شرك بالله.

٤ ـ أصل: المنزلة بين المنزلتين:

وهو من أوائل الاضافات التي قدمها واصل بن عطاء، فأحدث به ذلك الانشقاق في صفوف (القائلين بالعدل والتوحيد)، فنشأت به المعتزلة كفرقة مستقلة، هي أخص من القائلين بالعدل والتوحيد..

ويعني هذا الأصل: أن مرتكب الكبيرة، الذي أجمع كل من: الخوارج، والمرجئة، وأهل العدل والتوحيد على تسميته بـ « فاسق »، ثم اختلفوا بعد ذلك، فقال الخوارج: هو فاسق كافر وقالت المرجئة: هو فاسق ومؤمن، وقال الحسن البصري وأصحابه: هو فاسق منافق.. يعني أصل (المنزلة بين المنزلتين)، عند واصل والمعتزلة: الأخذ بما اتفق عليه الجميع من أن مرتكب الكبيرة « فاسق »، ورفض ما عدا ذلك من الآراء المختلف فيها وعليها، ثم الحكم بأن هذا « الفاسق » هو في منزلة وسط بين منزلتي « الكفر » و « الايمان »، لمباينته درجات الكفار وأحكامهم ودرجات المؤمنين وصفاتهم، وأنه بعد ذلك مخلد في النار، وان يكن في درجة من العذاب دون درجة المشركين والكفار.

ولقد أخطأ البغدادي، في كتابه (الفرق بين الفرق)، عندما قال ان هذا الأصل من أصول المعتزلة قد نشأ بصدد تقويمهم لموقف أطراف النزاع على

السلطة زمن علي بن أبي طالب، وعندما توهم وأوهم أن واصل بن عطاء قد حكم بالفسق والخلود في النار على طرف من أطراف هذا النزاع بعد أن وضعه في منزلة بين منزلتي الكفر والايمان[1] . .

أخطأ البغدادي في تحديد الملابسات التي أثمرت هذا الأصل من أصول المعتزلة الخمسة، فلم تكن تقويم النزاع على السلطة زمن علي، وانما كانت تقويم الدولة الأموية ورجالات حكمها وجهازها الاداري والمالي والعسكري . . فأركان هذه الدولة هم الذين فشت مظالمهم، وأصبح الجميع شبه متفقين على أنهم من مرتكبي الكبائر، وعلى أنهم « فسقة »، ثم نشأ الخلاف على ما يأتي بعد الحكم « بالفسق » الذي اتفقوا عليه . . وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الهجري الأول عندما اشتدت ثورات الخوارج الأزارقة، فطرحت هذه القضية بالحاح على دوائر الفكر الاسلامي . . ويقطع بصحة ما نقول أن « النموذج » الذي كان يدور الجدل حول « ايمانه » كانت الأطراف كلها قد اتفقت على « فسقه وفجوره »، ولم يحدث أن اتفقت هذه الأطراف جميعها على « فسق وفجور » : طلحة والزبير وعائشة - (أصحاب موقعة الجمل) - أو علي بن أبي طالب وصحبه، أو معاوية وأهل الشام . . ويشهد لما نقول تلك السطور التي يفصل فيها الخياط، أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان، الحديث عن نشأة هذا الأصل، فيقول في كتابه (الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد) : « ان الخوارج، وأصحاب الحسن - (البصري) - كلهم مجمعون، والمرجئة على أن صاحب الكبيرة فاسق فاجر، ثم تفردت الخوارج وحدها فقالت : هو، مع فسقه وفجوره، كافر. وقالت المرجئة وحدها : هو، مع فسقه وفجوره، مؤمن. وقال الحسن ومن تابعه : هو، مع فسقه وفجوره، منافق . . فقال لهم

(١) البغدادي (الفرق بين الفرق) ص ٩٩، ١٠٠ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

واصل: قد أجمعتم أن سميتم صاحب الكبيرة بالفسق والفجور، فهو اسم له صحيح باجماعكم، وقد نطق القرآن به في آية القاذف ـ ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً، وأولئك هم الفاسقون﴾ ـ « النور: ٢٢٤ ـ وغيرها من القرآن، فوجب تسميته به. وما تفرد به كل فريق منكم من الاسماء فدعوى لا تقبل منه إلا ببينة من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ. ثم قال واصل للخوارج: وجدت أحكام الكفار، المجمع عليها، المنصوصة في القرآن، كلها زائلة عن صاحب الكبيرة، فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه.. ثم قد جاءت السنة المجتمع عليها أن أهل الكفر لا يوارثون ولا يدفنون في مقابر أهل القبلة، وليس يفعل ذلك في صاحب الكبيرة. وحكم الله في المنافق: أنه ان ستر نفاقه، فلم يعلم به، وكان ظاهره الاسلام، فهو عندما مسلم، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وان أظهر كفره استتيب، فإن تاب والا قتل، وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة. وحكم الله في المؤمن: الولاية والمحبة والوعد بالجنة.. وحكم الله في صاحب الكبيرة، في كتابه: ان لعنه وبرىء منه وأعد له عذاباً عظيماً.. فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن، بزوال أحكام الايمان عنه في كتاب الله، ووجب أنه ليس بكافر، بزوال أحكام الكفر عنه، ووجب أنه ليس بمنافق، في زوال أحكام المنافقين عنه في سنة رسول الله، ﷺ، ووجب أنه فاسق فاجر، لاجماع الأمة على تسميته بذلك، وبتسمية الله له به في كتابه..[1] » أهـ.

تلك هي ملابسات ظهور هذا الأصل من أصول المعتزلة..

وهو عندهم من المسائل « الشرعية » التي لا مجال للعقل فيها، لأنه

(١) الخياط (الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد) ص ١٦٥ ـ ١٦٧ تحقيق: نيبرج. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م.

متعلق بمقادير الثواب والعقاب، وهي مقادير لا يعلمها الا مقدرها، وهو الله سبحانه، وعلمها لا يدخل في نطاق ما يعلم عقلاً[1]. .

والمعتزلة يطلقون، أحياناً، على هذا الأصل اسم (الأسماء والأحكام)، بدلاً من (المنزلة بين المنزلتين)، لأنه يدور حول أسماء مرتكبي الكبائر وأحكامهم. .

وتؤكد الملابسات السياسية لنشأة هذا الأصل من أصول المعتزلة، وكذلك طابعه السياسي العام، انه كان، بالدرجة الأولى، تقويماً للدولة وجهازها، قبل أن يكون مجرد موقف من الانسان العادي الذي يرتكب ذنباً من الذنوب الكبائر ثم يموت دون أن يتوب منه الى الله سبحانه وتعالى.

٥ ـ أصل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهو أكثر أصول المعتزلة الخمسة اختصاصاً بالجانب السياسي من فكرهم العام ونظريتهم السياسية عندما وضعت في الممارسة والتطبيق. .

وفرق الاسلام جميعها لم تختلف حول وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . ولكن اتفاقها هذا هو اتفاق ظاهري، يخفي خلافاً واختلافاً بين بعضها والبعض الآخر حول هذا الأصل الفكري. . فهم جميعاً يؤمنون بقول الله سبحانه: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ ـ «آل عمران: ١٠٤» ـ وقوله: ﴿وكنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ـ﴾ «آل عمران: ١١٠» ـ . . ولكنهم بعد ذلك يختلفون. .

فأصحاب الحديث، من أهل السنة، يحرمون استخدام العنف والقوة ـ

(١) (شرح الأصول الخمسة) ص ١٣٨.

(السيف) ـ في النهي عن المنكر، ومن ثم ينكرون « الخروج » على أئمة الجور وظلمة الحكام.. وهم يقولون ـ وفق عبارات الأشعري في (مقالات الاسلاميين): « ان السيف باطل، ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية، وان الامام قد يكون عادلاً، ويكون غير عادل، وليس لنا ازالته وان كان فاسقاً![1].. » ووفق عبارة أحمد بن حنبل التي ينقلها أبو يعلى الفراء في (الأحكام السلطانية) ـ: « .. ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه اماماً عليه، براً كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين! »[2].

والشيعة الامامية ينكرون الخروج المسلح الا اذا كان مع امامهم المنتظر « فإذا خرج الناطق وجب سل السيوف حينئذ معه » أما قبل ظهوره فلا تسل السيوف!..[3].

ووقف هؤلاء وهؤلاء بوسائل النهي عن المنكر عند أداتي: اللسان، والقلب، دون اليد، فضلاً عن اليد الحاملة للسيف!..

لكن المعتزلة، في هذا الأصل من أصولهم الفكرية، أوجبوا النهي عن المنكر بالوسائل الثلاث التي حددها حديث الرسول، عليه الصلاة والسلام: « من رأى منكم منكراً فليغيره، بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان » ـ رواه: مسلم والترمذي والنسائي وابن حنبل ـ.. فاليد ـ وتشمل الفعل والقوة ـ ثم اللسان.. ثم

---

(١) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ٤٥١، ٤٥٢.

(٢) (الأحكام السلطانية) ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م. و (كتاب الامامة) لأبي يعلى، أيضاً، ص ٢١٢ طبعة بيروت، ضمن مجموعة عنوانها (نصوص الفكر السياسي الاسلامي: الامامة عند السنة، سنة ١٩٦٦ م.

(٣) ابن حزم (الفصل في الملل والأهواء والنحل) جـ ٤ ص ٣١. طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

الرفض القلبي.. هي الوسائل التي حددها الحديث للنهي عن المنكر في مجتمع المسلمين[١]... واستدلوا على جواز الخروج المسلح بقول الله سبحانه ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ - « المائدة: ٥٢ » - وقوله: ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله﴾ - « الحجرات: ٩ » - وقوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ - « البقرة: ١٢٤ »..

ومع المعتزلة، في موقفهم هذا، وقف: الخوارج، والزيدية، وطوائف من أهل السنة..

ولقد بلغ مقام هذا الأصل عند المعتزلة الى الحد الذي جعلوه « أصلاً عظيماً من أصول الدين... » وقالوا عنه: « إنه أصل شريف.. » وعدوه « أشرف من جميع أبواب البر والعبادة! »، كما يقول ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة)[٢]..

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قرره المعتزلة، لا يقف عند الجانب الفردي، بل انه أدخل الأصول في العمل السياسي والممارسة الاجتماعية، فهدفه الأول والأساس: « أن لا يضيع المعروف ولا يقع المنكر » في المجتمع، أي أن تظل معالم الحق والهدى بينة يهتدي بها الناس، وأن يختفي المنكر من حياة الناس ومجتمعاتهم، فإذا تحققت هذه الغاية برىء الناس من تبعة وجوب هذا الأصل عليهم، فهو من فروض الكفاية وواجباتها.. ومعلوم أن فروض الكفاية أكثر أهمية وأشد تأكيداً من فروض الأعيان، لأن تخلف قيام فرض العين يأثم به من أهل فيه، أما تخلف قيام

---

(١) المصدر السابق. جـ ٤ ص ٣١.

(٢) ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) جـ ١٩ ص ٣١١ تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.

فرض الكفاية فالذي يأثم به الأمة جمعاء! . .

وإذا تعرض الانسان للاكراه كي لا ينكر المنكر، فلا يجوز له الخضوع لهذا الاكراه، حتى لـو هلكت ذاته، وذلـك اذا كان في المنكـر ضرر يلحق بـالغير، لا يمكن ضمـانه أو التعـويض عنه بعـد زوال الاكراه، فـإذا أجبر الانسان على فعل منكر يتعدى ضرره الى الغير، مما لا يمكن تـدارك آثاره، كالقتل والقذف، فغير جائز له الخضوع لهذا الاكراه، أما اذا أمكن الضمان والتعـويض، كأن يكـره على اغتصـاب مـال الغـير، فيجـوز لـه الخضـوع للاكراه، مع الضمان للمـال المغصوب. . ومثـل ذلك مـا إذا كان الضـرر قاصراً على ذات المكره ـ (بفتح الراء) ـ كأنه يكره على أكل الميتة، أو شرب الخمر، والتلفظ بكلمة الكفر ـ مع إبطان ضدهـا ـ. . فيجوز لـه الخضوع للاكراه[1] . .

ويختلف الأمر بالمعروف عن النهي عن المنكر من حيث ان المطلوب في الأمر بالمعروف هو: الأمر به فقط، وليس مطلوباً حمـل الغير عـلى الامتثال لهذا الأمر، فالواجب هو الأمر باقامة الصلاة، مثـلاً، لا حمل تـاركها عـلى القيـام بها. . أمـا المنكر فـإن الواجب هـو: النهي عنه، وحمـل فاعله عـلى الانتهاء عنه، بواحدة من الوسائل الثلاث[2] . .

ولقـد قيد المعتـزلة وجـوب هذا الأصـل من أصولهم الفكـرية بتـوافر الشروط التي تجعل ممارسته عملاً مثمراً للغايات التي وجب لأجلها، وذلك مخـافة أن يـأتي الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر بضد المـطلوب. . وهذه الشروط هي:

---

(١) (شرح الأصول الخمسة) ص ١٤٤، ١٤٥.

(٢) المصدر السابق ص ٧٤٤، ٧٤٥.

أولاً: أن نعلم أن ما نأمر به هو من « المعروف »، وما ننهي عنه هو من « المنكر »، ولا يكفي في ذلك غلبة الظن، اذ لابد من بلوغ درجة العلم.

ثانياً: أن يكون « المنكر » الذي يجب النهي عنه « قائماً، مشاهداً »، كأن نرى الخمر أو أدواتها مثلاً.. وحكموا بأن غلبة الظن تقوم هنا مقام العلم بقيام « المنكر ».. فيجب النهي بناء عليها.

ثالثاً: أن نعلم أن نهينا عن « المنكر » لن يؤدي الى حدوث « منكر » أشد من المنهي عنه، فلا يصح أن ننهى عن « منكر »، مثل شرب الخمر، اذا علمنا، أو غلب على ظننا، أن هذا النهي سيؤدي الى قتل أو فساد أشد من شرب الخمر.. عندئذ لا يجب النهي ولا يحسن.

رابعاً: أن نعلم أن نهينا سيحدث أثراً ايجابياً، وأنه لن يذهب عبثاً وأدراج الرياح، أو على الأقل يغلب على ظننا ذلك والا لم يجب النهي.. واذا انتفى **الوجوب** قال البعض انه حسن، لأنه بمنزلة استدعاء الغير للدين، وقال آخرون لا يحسن، لأنه عبث..

خامساً: أن نعلم، أو يغلب على ظننا أن النهي عن المنكر لن يؤدي الى وقوع ضرر في المال أو النفس للناهين عنه.. والضرر المعتبر هنا يختلف باختلاف قدرات الناس وحالاتهم ومنازلهم.. واذا انتفى **الوجوب** اتقاء للضرر، فانه يحسن النهي عن المنكر، خاصة اذا علم أن وقوع الضرر على الناهي عن المنكر مما يزيد في اعزاز الدين بابراز النماذج التي تضحي في سبيل اقامة شرعته.. وفي الحالات التي ينتفى فيها وجوب النهي عن المنكر، لفقدان الشروط الواجب توافرها، فإن اظهار الكراهية والرفض للمنكر وأهله هو واجب على الجميع، وخاصة على من يتوهم منه الرضى بالمنكر، أما من لا يتوهم منه ذلك فإن انكاره ورفضه وكراهيته معلومة حتى

دون اظهار واعلان[١]. .

وحتى نفهم مراد المعتزلة من وراء اشتراط هذه الشروط، لابد أن نعي أنهم قد استهدفوا بها ضمان تحقيق الغرض المنشود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم، مثلاً مع سل السيف ضد الامام الجائر، ويوردون في هذا الباب الحديث الذي رواه الصحابي حذيفة بن اليمان: « قلت: يا رسول الله، أيكون بعد الخير الذي أعطينا شر، كما كان قبله؟! قال: نعم. قلت: فبمن نعتصم؟ قال: بالسيف! » ـ رواه أحمد بن حنبل وأبو داود ـ . . وهم، مع ذلك، يشترطون للثورة على أئمة الجور شروطاً منها: أن يكون الثوار جماعة، يقودها امام، والنصر محتمل بالنسبة لثورتها. . وبعبارتهم ـ التي نقلها لأشعري في (مقالات الاسلاميين) ـ: « . . اذا كنا جماعة، وكان الغالب عندنا أنا نكفي مخالفينا، عقدنا للامام، ونهضنا ـ (ثرنا) ـ فقتلنا السلطان وأزلناه، وأخذنا الناس بالانقياد لقولنا! »[٢]. .

والمعتزلة بعد أن اجتمعوا على هذا الأصل من أصولهم الخمسة ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ اجتهدوا فاختلفوا في عدد من التفاصيل والفرعيات. .

فمنهم من قال: ان طريق العلم بوجوبه هو العقل والسمع معاً، في كل الحالات. . ومنهم من قال: بل السمع فقط، الا اذا وضح الظلم فحرك في القلب المضض والامتعاض، فعند ذلك يجب النهي عنه عقلاً، كما وجب سمعاً. فوضوح المنكر وبشاعته يجعل لوجوب انكاره طريقان: العقل والسمع معاً. . ![٣].

---

(١) المصدر السابق. ص ١٤٢ ـ ١٤٤.

(٢) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ٤٦٦.

(٣) (شرح الأصول الخمسة) ص ١٤٢.

وقدامى المعتزلة أوجبوا الأمر بالمعروف، على الاطلاق، ودون تفصيل.. بينما المحدثون منهم قد فصلوا في هذا الموضوع.. فجعلوا الأمر بالواجب واجباً، وبالسنة سنة، وبالمندوب مندوباً.. وظل النهي عن المنكر، عند الجميع، واجباً في كل الحالات[1]..

والذين يطالعون المباحث المطولة التي كتبها المعتزلة تحت هذا الأصل من أصولهم الفكرية، يدركون الصلات الوثيقة بينه وبين صلاح المجتمع وتطهيره من الشوائب والسلبيات.. فهو، مع: الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين.. بل والعدل.. يكوّن الأصول الأربعة ذات الطابع السياسي من الأصول الخمسة التي كانت الأعمدة الفكرية في النظرية العامة للمعتزلة، أهل العدل والتوحيد..

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٦ .

التنظيم

عرفت كثير من الفرق الاسلامية، منذ نشأتها المبكرة، واستخدمت « التنظيم »، و « التنظيم السري » بوجه خاص.. وأمر ذلك معروف وشهير في العديد من تنظيمات الشيعة منذ العهد الأموي.. ولقد كان لفرقة المعتزلة تنظيمها السري الذي قاد الدعوة لأصولها الخمسة، وجاهد لوضعها موضع التطبيق..

ولسرية هذا التنظيم.. وللاضطهاد الذي تعرضت له المعتزلة.. وللمحنة التي أصابتها على عهد المتوكل العباسي (٢٣٣ ـ ٢٤٧ هـ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م) فحرم فيها فكرها، وعزلت عن الحياة الرسمية والعامة رجالاتها، وأبيدت الآثار الفكرية لأعلامها.. لكل ذلك كثرت الصعوبات أمام من يبغي جلاء حقيقة تنظيم هذه الفرقة وتحديد هيكله والوصول الى تصور يقيني حول قوته ومدى انتشاره فوق رقعة الدولة العربية الاسلامية..

ولكن.. وبالرغم من تلك الصعوبات، فإن استقراء المعلومات المتاحة يضع يدنا على عدد من الحقائق والمعالم الخاصة بهذا التنظيم..

فالذي قاد بناءه ونهض بمهمة قيادته هو رأس علماء المعتزلة واصل بن عطاء.. ولقد بلغ سلطان واصل في هذا التنظيم، وحب رجاله وأعضائه له وطاعتهم اياه درجة عظمى في الكفاءة والامتثال والتنفيذ لما يريد، حتى ليقول عثمان الطويل، وهو أحد الدعاة في هذا التنظيم، على عهد واصل: ان واصل كان يملك نفوس المعتزلة دون أصحاب هذه النفوس؟!.. وبعبارته ـ التي يوردها القاضي عبد الجبار في كتابه (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ـ : « ما كنا نرى أن لنا على أنفسنا ملكاً في حياة واصل، حتى مات.. كان يقول للواحد منا: أخرج الى بلد كذا فما يراده؟! »[1].

وكانت « البصرة » مقر قيادة هذا التنظيم، أما دعاته وشعبه وأنشطته فإنها امتدت خارجها فشملت مختلف أنحاء الدولة العربية الاسلامية، من الصين شرقاً الى المغرب غرباً ومن اليمن جنوباً الى الجزيرة في الشمال.. وفي القصيدة التي دافع بها الشاعر صفوان الأنصاري عن واصل بن عطاء يتحدث مشيراً الى انتشار التنظيم الذي قاده فيقول:

له خلف شعب الصين في كل ثغرة ... الى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر[2]

وفيما بقي من تراث هذه الفرقة نعلم أن واصل قد بعث القادة والدعاة الى مختلف الأقاليم..

بعث الى المغرب: عبد الله بن الحارث..
والى اليمن: القاسم بن السعدي..
والى الجزيرة أيوب بن الأوثر ـ (أو الأوتن) ـ وهو الذي تولى قيادة تنظيم

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٣.
(٢) الجاحظ (البيان والتبيين) جـ ١ ص ٢٨ طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م.

المعتزلة أيضاً في المدينة والبحرين . .
والى خراسان : حفص بن سالم . .
والى الكوفة : الحسن بن ذكوان ، وسليمان بن أرقم . .
والى أرمينية : عثمان بن أبي عثمان الطويل . .

وكان دعاة هذا التنظيم يمارسون شؤون حياتهم العادية واليومية ، تجارة وصناعة وحرفاً ، الى جانب العمل الفكري والتنظيمي والسياسي الذي كلفوا به . . ومؤرخو المقالات يتحدثون كيف اختار واصل بن عطاء عثمان الطويل ـ وكان تاجر نسيج «بزازاً» ـ ليقود الدعوة في أرمينية ، فأراد الاعتذار بسبب مشاغله التجارية ، وعرض أن يدفع للتنظيم نصف ما يملك من ثروة ينفقها التنظيم لقاء اعفائه من السفر الى أرمينية ، ولكن واصل رفض ، وأمر الطويل الذهاب الى أرمينية ، داعياً وتاجراً في ذات الوقت . . فامتثل الداعي لأمر القائد ، وهناك تاجر وربح . . وأجابه أهل أرمينية الى دعوة المعتزلة .

وكانت لهذا التنظيم تقاليد مرعية في الدعوة الى فكر المعتزلة ، دعت اليها البيئة المحلية وطبيعة المهمة الموكلة الى هؤلاء الدعاة . . ومما بقي من تراثهم نعلم أن الداعي كان يبدأ فيلزم مكاناً محدداً بالمسجد ، يواظب على الحضور فيه باستمرار ، حتى تلتفت اليه الأنظار ، وحتى يدعو سلوكه الطيب وسمته الحسن الناس الى التحدث اليه ويشوقهم الى السماع منه . . . وكانت هذه الفترة تستغرق ، في العادة ، عاماً كاملاً . . ثم يبدأ الداعي فيدعو الناس الى أفكار (أهل العدل والتوحيد) سنة أخرى ، حتى اذا أجابوه ، أخذ يدعوهم الى ما اختص به المعتزلة وتميزوا عن (أهل العدل والتوحيد) . . وواصل بن عطاء يوصي عثمان الطويل بهذه الخطة في الدعوة فيقول له عندما ذهب الى أرمينية : « الزم سارية من سواري المسجد سنة تصلي

عندها، حتى يعرف مكانك.. ثم أفْتِ بقول الحسن (البصري) سنة... ثم اذا كان يوم كذا من شهر كذا فابتدىء بالدعاء للناس الى الحق، فاني أجمع أصحابي في هذا الوقت، ونبتهل في الدعاء الى الله، والله ولي توفيقك؟! »..

وعندما أرسل حفص بن سالم الى خراسان، كي يناظر زعيم الجبر والارجاء: الجهم بن صفوان، أوصاه: « « اذا وصلت الى بلده فالزم سارية في الجامع سنة، حتى يعرف موضعك، فيشتاق الناس الى السماع، ثم استدع مناظرة جهم بن صفوان »..

ولم تقتصر عضوية هذا التنظيم على الرجال، بل شاركت فيه النساء أيضاً.. والمعتزلة يذكرون في (الطبقة العاشرة) من طبقات رجالهم - (أجيالهم) - : بنت أبي علي الجبائي - وهو من أعلامهم - أخت: أبي هاشم الجبائي - وهو من أعلامهم أيضاً - ويقولون عنها: انها « قد بلغت في العلم أن سألت أباها عن مسائل، وأجابها، وكانت داعية في النساء، وينتفع بها في تلك الديار! ».. أي أنه كانت هناك دعوة وداعيات ومدعوات في صفوف النساء..[1].

ولقد بلغ تفاني دعاة المعتزلة لأصولهم الخمسة، وكذلك احتمالهم ألوان الاضطهاد حداً كبيراً، لفت ويلفت اليهم الأنظار.. وفي القصيدة التي دافع بها صفوان الأنصاري عن واصل بن عطاء اشارات الى طبيعة هؤلاء الرجال ومكانتهم، والى مكان واصل من قيادتهم. وهي اشارات ترسم بعض ملامح هذه الدعوة ونشاطات هذا التنظيم.. يقول عن واصل وحزبه ودعاته:

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٦٢، ٦٣، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٣٧، ٣١٦. و(باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل) ص ١٩، ٢٠.

له خلف شعب الصين في كل ثغرة ... الى «سوسها»[١] الأقصى وخلف البرابر[٢]
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر
اذا قال: مروا في الشتاء تطاوعوا ... وان كان صيفاً لم يخف شهر ناجر
بهجرة أوطان وبذل وكلفة ... وشدة أخطار وكد المسافر
فأنجح مسعاهم وأثقب زندهم ... وأورى بفلج للمخاصم قاهر[٤]
وأوتاد أرض الله في كل بلدة ... وموضع فتياها وعلم التشاجر[٥]
وما كان سحبان يشق غبارهم ... ولا الشدق من حيي هلال بن عامر[٦]
تلقب بالغزال واحد عصره ... فمن لليتامى والقبيل المكاثر؟!
ومن لحروري وآخر رافض ... وآخر مرجي وآخر حائر؟
وأمر بمعروف وانكار منكر ... وتحصين دين الله من كل كافر
يصيبون فضل القول في كل منطق ... كما طبقت في العظم مدية جازر
تراهم كأن الطير فوق رؤوسهم ... على عمة معروفة في المعاشر
وسيماهم معروفة في وجوههم ... وفي المشي حجاجاً وفوق الأباعر
وفي ركعة تأتي على الليل كله ... وظاهر قول في مثال الضمائر
وفي قص هداب واحفاء شارب ... وكور على شيب يضيء لناظر[٧]

---

(١) السوس الأقصى: بلدة بالمغرب، كان الروم يسمونها: قمونية.

(٢) خلف البرابر: أي وراء بلاد البربر.

(٣) الناجر: كل شهر من شهور الصيف، لأن الابل تنجر فيه، أي تعطش من الحر.

(٤) الفلج ـ بفتح الفاء ـ من معانيه: السهم، والظفر والفوز، والحجة.

(٥) علم التشاجر: أي علم الكلام!.

(٦) سحبان وائل: المضروب به المثل عند العرب في الفصاحة. والشدق: لقب لاثنين من البلغاء الخطباء في بني عامر.

(٧) الكور ـ بفتح الكاف ـ: الدور من العمامة.

وعـنـفـقـة مـصـلومـة ولـنـعـله قبالان في ردن رحيب الخواطر[١]
فتلك عـلامات تحيط بـوصفهم وليس جهول القوم في جرم خابر![٢]

(١) العنفقة المصلومة: الرقبة الشديدة ـ والقبال ـ بكسر القاف ـ زمام النعل. والردن: من معانيه الكيس، كانت العرب تضع فيه الدنانير.
(٢) (البيان والتبين) جـ١ ص ٢٧ ـ ٢٩.

الدلالة الحضارية

من بين فرق الاسلام تمتاز المعتزلة بأن نشأتها وفكرها ونشاطها العملي قد كان علامة بارزة من علامات التبلور الحضاري العربي الذي أخذ في القيام والشموخ بعد عصر الفتوحات وقيام الدولة العربية الاسلامية الكبرى. . وهذا التبلور الحضاري الذي جسدته المعتزلة كان البشير بالمستقبل والحامل لعوامل التقدم، على عكس ما كانت تمثل تيارات وفرق أخرى من ردة حضارية أو قيم رجعية بالقياس الى ما بشر به الاسلام. .

لقد مثل الاسلام، في جانبه الديني والغيبي، دعوة عالمية، كانت الامتداد لدعوة الرسل الذين سبقوا والرسالات التي انقضت. . فدين الله واحد، في كل زمان وفي أي مكان، على مر التاريخ. . والى جوار هذا الجانب الديني الغيبي كان الاسلام، بكتابه العربي ونبيه العربي وقيام دعوته بين العرب، تجسيداً لبعث عربي عملاق ووشيك. . ومن هنا جاءت الدولة التي أقامها المؤمنون به والفتح الذي أزاحوا به عن الشرق نير الفرس والبيزنطيين، والبناء السياسي والاداري والتنظيم الاقتصادي الذي قام في الدولة العربية الاسلامية الكبرى، والباب الذي فتح أمام الحضارات

السابقة للشعوب التي فتحت بلادها كي تتفاعل وتتبلور عناصرها الصالحة في حضارة عربية واحدة لأمة متحدة. . جاءت كل هذه الجوانب وقامت كل هذه التباشير لتؤكد أن الاسلام، في جانبه الحضاري، يعني الكثير بالنسبة للعرب والعروبة والتعريب. . فنحن أمام ملامح قومية لهذا الدين أخذت تبرز عندما انتشر وأصبحت له دولة يقودها العرب المسلمون. .

وحتى يوحد الاسلام القبائل العربية فيجعلها نواة البناء القومي المنشود شدد على رفض العصبية الجاهلية، وادانة النعرات القبلية اللاتوحيدية واللاقومية. . . وحتى يفتح الطريق لانصهار قومي تندمج فيه القبائل العربية مع شعوب البلاد المفتوحة حدث القرآن المسلمين عن خلق الله لهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا. . . ووضع الرسول، عليه الصلاة والسلام أساساً جديداً، ذا مضمون انساني ومستنير لمعنى العروبة، تجاوز بها العنصرية والعرقية والقبلية الى رحاب الحضارة والثقافة والفكر على نحو ما يفهمه المستنيرون المعاصرون في هذا المقام. . فقال عليه السلام: «ليست العربية بأحدكم من أب أو أم، وانما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي». .

كانت تلك الاضافة من أهم ما أنجز الاسلام، في جانبه الحضاري. .

ولكن الصراعات السياسية على السلطة، وما أحدثته الدولة الأموية من تغييرات في طبيعة هذه السلطة قد انتكس بهذا المفهوم القومي المتقدم، وعادت الدولة لتؤسس قوتها وتضمن بقاءها باحياء العصبية القبلية واذكاء النعرات الجاهلية القديمة، فأصاب الشقاق وحدة القبائل العربية. . . كما أشاعت الدولة مفهوم العصبية العربية الضيقة الأفق فأقامت الحواجز بين القبائل وبين الشعوب، فتعطلت تلك العملية الحضارية القومية، عملية الانصهار، عن التقدم المأمول. .

وحدث أن أصبحت الصورة القومية في الدولة العربية هكذا:

* الأمـويون يتعصبـون للعرب تعصبـاً ضيق الأفق، حتى لقد جعلوا الموالي ـ شعوب البلاد المفتوحة ـ مواطنين من الدرجة الثانية، حرموا من كثير من الحقوق التي قررها الاسلام، مثل الزواج من العربيات، وامامة الغرب في الصلاة، أحياناً؟!..

* ودهـاقين الفـرس وأركان النـظام الكسروي القـديم يذكـون روح التعصب ضد كل ما هو عربي، حتى غدت الحركة الشعوبية تحقر كل ما هو عربي، وتسعى لفصم عرى الوحدة السيـاسية والادارية للدولة، وتجـاهد للحيلولـة دون الانصهـار الحضـاري بـين العـرب وبـين الـذين وضعتهم الفتوحات على طريق التعريب..

وكان واضحاً أن الـطرفين ـ العصبيـة الأمويـة، والتعصب الشعوبي ـ يمثلان الفكر المتخلف، ويبعثان روح الصراع القديم بين العرب والفرس، ولا يمتّان بصلة وثيقة لما بشر به الاسلام وما أتاحته دولته من امكانية التبلور الحضاري الجديد والانصهار القومي الواحد لأبناء الامبـراطوريـة الجديـدة أجمعين.

وأمام هذا المأزق القومي.. والتحـدي الحضاري كـان العطاء الـذي قدمته فرقة المعتزلة، على الجبهة القومية، هو طوق النجاة للعروبة، عروبة المستقبل ذات المضمون القومي المستنير، والتي تسعى لبناء كل قومي واحد ذي حضارة واحدة من كل الشعوب والقبائل ومختلف المواريث والثقافات.. فهم قد رفضوا كلاً من: عصبية بني أمية وتعصب الشعوبيين.. وهم قدموا بواكير صيـاغات الفكـر القومي المتقـدم والمستنير، وهم جسـدوا بحركتهم وتنظيمهم النموذج الرائد لهذه الولادة القومية والحضارية الجديدة..

وللدلالة على نهوضهم بهذا الانجاز الحضاري والقومي هنـاك العديـد من الوقائع والأمثلة.. يكفي هنا أن نقف عند البعض منها:

الموالي . . ضد الشعوبية :

لقد لعب الموالي دوراً بارزاً في تنظيم المعتزلة، وفي مناصرة الفكر الذي بشرت به . . ولكن المعتزلة لم تنفرد بهذا الأمر، فمن قبلها ومعها كان نشاط الموالي ملحوظاً ودورهم بارزاً في فرقة الشيعة وحركتها ودعوتها . . ولكن الموالي من الشيعة كانوا، في الأغلب، مع التيار الشعوبي، يناصبون العرب والعروبة أشد العداء، متخذين من ظلم بني أمية، واضطهادهم لآل البيت ستاراً ومناسبة يعينان على ازالة هذه الدولة العربية والعودة عن وحدة الدولة الى الانفصال . . أما الموالي في فرقة المعتزلة وفي تيار (أهل العدل والتوحيد)، فانهم كانوا طلائع المفكرين الذين بشروا بالاندماج الحضاري، والانصهار القومي العربي، وقدموا مع اخوانهم المنحدرين من أصول عربية بواكير الصياغات القومية للعروبة بمضمونها المستنير . .

صحيح أن فكر المعتزلة قد ولد في بيت عربي، هو بيت محمد بن الحنفية . . ولكن الموالي كانوا من أبرز فرسان هذه الفرقة وأكثر أعلامها وعلمائها عطاء ونشاطاً . .

* فأبو مروان غيلان بن مسلم الدمشقي . . كان من موالي عثمان بن عفان . . وهو من أصل مصري (قبطي) ولذلك يلقب أحياناً بغيلان القبطي . .

* وأبو حذيفة واصل بن عطاء . . هو من موالي بني هاشم . . والبعض يقول: انه من موالي ضبة . . ويقول آخرون: إنه من موالي مخزوم . .

* والحسن بن أبي الحسن البصري . . من الموالي . . وكان أبوه من سبي ميسان . .

* وأبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب . . من موالي بني العدوية، وكان

أبوه من سبي كابل، أحد ثغور بلخ . .

* وأبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني (١٣١ هـ) . . كان من موالي عنزة . .

* وأبو عبد الله يونس بن عبيد (١٣٩ هـ) . . هو من موالي عبد القيس . .

* وأبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمي (١٤٣ هـ) . . كان من موالي عمرو بن مرة بن عبادة، من ضبيعة . .

* وأبو بكر محمد بن سيرين (١١٠ هـ) . . كان مولى لأنس بن مالك، وكان أبوه من سبي عين تمر بميسان . .

* وعطاء بن يسار (٩٤ هـ) كان مولى لميمونة بنت الحارث الهلالية، زوج الرسول، عليه السلام . .

* وأبو محمد عمرو بن دينار (١١٥ هـ) . . كان من موالي جمح . .

* وهشام بن أبي عبد الله الدستوائي (١٥٣ هـ) . . من موالي بني سدوس . .

* وأبو النضر سعيد بن أبي عروبة (١٥٧ هـ) . . من موالي بني عدي ابن يشكر . .

* وأبو عبيدة حميد بن طرخان الطويل (١٤٢ هـ) . كان من موالي طلحة بن عبد الله بن خلف ـ (طلحة الطلحات) ـ من خزاعة . .

* وأبو يسار عبد الله بن أبي نجيح (١٣١ هـ) . . كان من موالي ثقيف . .

* ومكحول الدمشقي (١١٣ هـ).. كان من سبي كابل مولى لامرأة من هذيل..

* وغندر، محمد بن جعفر (١٩٤ هـ).. كان من موالي هذيل..

* وأبو عبيدة عبد الوارث بن سعيد التنوري (١٨٠ هـ).. كان من موالي بني العنبر، من تميم..

* وصالح المري.. كان من موالي بني مرة، من عبد القيس..

* وأبو عبد الله محمد بن اسحاق (١٥١ هـ).. كان مولى لقيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكان جده من سبي عين تمر..

* وأبو خالد مسلم بن خالد الزنجي (١٨٠ هـ)، كان من موالي مخزوم..

* والعلاف، أبو الهذيل محمد بن الهذيل (٢٣٥ هـ).. كان من موالي عبد القيس..

* والنظام، ابراهيم بن سيار (٢٣١ هـ).. كان من موالي الزياديين..

* والجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ).. كان مولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي[1]..

هذا نفر من أعلام المعتزلة وأوائل أئمتهم الذين كانوا من الموالي..

---

(١) أنظر عن هؤلاء الأعلام: ابن قتيبة (المعارف) ص ٤٨، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٦٨، ٥١٢، ٥٠٨، ٢٣٤، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٢٠، ٤٩١، ٤٩٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م. و(أمالي المرتضى) ق ١ ص ١٦٣، ١٦٩، ١٧٨، ١٩٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م. و(طبقات ابن سعد) جـ ٧ ق ٢ ص ٣٣، ١٤، ٢٣، ١٨، ١٤٠ - ١٥٠، ١٣، ١٢٩، ١٣٠، ٣٧، ١٧، ١٦٠، ١٦١، ٤٩، ٣٩ طبعة دار التحرير. القاهرة، و (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٦٤، ٧٨، ٧٩، ٨٠.

ومع ذلك فلم تشب فكر واحد منهم، ومن ثم فكر فرقتهم، أفكار شعوبية غير عربية.. بل على العكس من ذلك تماماً فلقد كان الفكر القومي المستنير، الذي أدان الحركة الشعوبية هو بعض من الانتاج الفكري لهذه الفرقة وهؤلاء الأعلام..

فالجاحظ، مثلاً، وهو من الموالي، يهاجم الشعوبية ـ في (البيان والتبيين) ـ فيقول: «.. واعلم أنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه، ولا أطول نصباً، ولا أقل غنماً، من أهل هذه النحلة.. ولو عرفوا أخلاق كل ملة، وزي كل لغة، وعللهم في اختلاف اشاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيآتهم، وما علة كل شيء من ذلك، ولم اختلقوه؟ ولم تكلفوه؟ لأراحوا أنفسهم، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم!..»[1].

وأبو الفتح عثمان بن جني (٣٣٠ ـ ٣٩٢ هـ ٩٤١ ـ ١٠٠١ م) ـ وهو من أصل فارسي ـ لا يتردد في اعلاء شأن اللغة العربية اذا ما قيست بالفارسية، بل ويجعل ذلك أمراً مقرراً من قبل علماء اللغة العربية، الذين انحدروا من أصول فارسية، ولهم دراية وعلم بالفارسية أيضاً، فيقول ـ في كتابه (الخصائص) ـ: «انا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمي، وقد تدرب بلغته قبل استعرابه، عن حال اللغتين، فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك، لبعده في نفسه، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه!»[2]..

---

(١) (البيان والتبيين) جـ ٣ ص ٤٠٥، ٤٠٦.

(٢) (الخصائص)، جـ ١ ص ٢٥٢ طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م.

كما يعالج الجاحظ، في نص هام من نصوصه، عملية المخاض التي تؤذن بولادة قومية واحدة تنصهر فيها الشعوب والقبائل التي كونت سكان الدولة العربية، عرباً وموالي.. ويتحدث عن دور التعايش والتفاعل بين الأجناس المختلفة، والاشتراك في اللغة والثقافة، والولاء للحضارة الجديدة، وكيف يثمر ذلك «أخلاقاً وشمائل» جديدة ومتحدة، وكيف تقوم هذه الروابط مقام النسب والولادة من رحم واحدة.. فيقول - في (الرسائل): «ان العرب قد جعلت اسماعيل، وهو ابن أعجميين، عربياً، لأن الله قد فتق لهاته - (أقصى سقف الفم المشرف على الحلق) - بالعربية المبينة.. ثم فطره على الفصاحة، وسلخ طباعه من طبائع العجم.. وسواه تلك التسوية، وصاغه تلك الصياغة، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها.. فكان أحق بذلك النسب وأولى بشرف ذلك الحسب.. وان العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربية .وفي اللغة والشمائل والهمة وفي الأَنَفِ والحمية، وفي الأخلاق والسجية، فسبكوا سبكاً واحداً وكان القالب واحدا، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم

والأخص، وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوي الأرحام، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى، حتى تناكحوا عليها وتصاهروا من أجلها، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بني اسحاق، وهو أخو اسماعيل وجادوا بذلك في جميع الدهر لبني قحطان، وهو ابن عابر. ففي اجماع الفريقين على التناكح والمصاهرة، ومنعهما من ذلك جميع الأمم، كسرى فما دونه، دليل على أن النسب عندهم متفق، وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة.. وان الموالي بالعرب أشبه، واليهم أقرب، وبهم أمس، لأن السنة جعلتهم منهم.. ان الموالي أقرب الى العرب في كثير من المعاني، لأنهم عرب في المدعى والعاقلة -

(العصبة) ـ وفي الوراثة، وهذا تأويل قول الرسول: « مولى القوم منهم » و « مولى القوم من أنفسهم » و « الولاء لحمة كلحمة النسب ». وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم، وحكمه حكمهم. . واذا عرف ذلك سامحت النفوس، وذهب التعقيد ومات الضغن، وانقطع سبب الاستثقال، ولم يبق الا التنافس! . . »[1].

هكذا تجسدت في المعتزلة الروح الجديدة للأمة الجديدة. . موالي وعرب، ينصهرون فكرياً وقومياً وحضارياً، ويبشرون، حتى بلسان الموالي، بتلك الولادة التي تقدم على الأرض العربية أمة واحدة صنعتها العادات والأخلاق والشمائل والسجايا الواحدة والواقع المتحد، والولاء للحضارة الجديدة. . وهي أسباب أشد في فعلها وفاعليتها التوحيدية من النسب والعرق الذي باعد بين متعصبي العرب ومتعصبي الشعوبيين. .

وتوازن فلسفي: (علم الكلام):

لقد تميزت الحضارة العربية الاسلامية عن بعض الحضارات الأخرى بميزات، من أهمها: الطابع والطبيعة التي وازنت بين عدد من المتناقضات، فاتخذت الموقف الوسط، بمعنى العدل، الذي هو الحق ين نقيضين لا يعبر أي منهما، اذا انفرد أو غلب، عن الصواب. . فلقد وازنت بين: المادة والروح. . وبين الجسد والنفس. . وبين العقل والنقل. . وبين الوجدان والحواس، وبين المعلوم والمجهول. . وين عالم الغيب وعالم الشهادة. . وبين الدنيا والآخر. . الخ. . الخ. .

ولقد كان المعتزلة، من بين فرق الاسلام، الأكثر تعبيراً عن هذه

---

(١) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٢٩ ـ ٣١، ١١ ـ ١٤، ٣٤. تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م.

الخاصية من خصائص حضارتنا، والأكثر تجسيداً لهذه الميزة التي تميزت بها عن غيرها من الحضارات. .

فالقرآن الكريم قد اشتمل على المحكم والمتشابه، والظاهر والباطن، وما يدركه الكافة وما يستعصي ادراكه على غير الراسخين في العلم. . والرسول، عليه الصلاة والسلام، قد أخبر أن وراء ظواهر نصوص آياته علماً لا يتبدى لمن يقف عند ظواهرها، ودعا من يريد المزيد الى قلب الظواهر والغوص في الأعماق، فقال: « أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين » و « من أراد العلم فليثوِّر القرآن »![1]. .

ولكن بساطة مجتمع شبه الجزيرة، المادية والحضارية، وحداثة الصلة بين الأمة الأمية وبين العلم والأنشطة العقلية المعقدة والمركبة وقفت « بالحركة الفكرية »، زمن صدر الاسلام، عند ظواهر النصوص في أغلب الأحيان. . فلما تمت الفتوحات، ودخل في اطار الدولة العربية الاسلامية أبناء أمم وشعوب لها في العلم والفلسفة والحضارات العريقة مواريث، وجد الاسلام نفسه وسط خضم من الفلسفات والمذاهب والملل والنحل، ووجهاً لوجه مع أبنية من الفكر اللاهوتي كثير منها يستخدم في الجدل والاقناع منطق أرسطو وفلسفة اليونان وعقلانية الحكماء الأقدمين، على حين كان لا يزال فقهاء الاسلام وقراؤه يقفون عند ظواهر النصوص. . فكان التحدي الذي امتحن فيه وبه هذا الدين الجديد. . ولقد زاد من شدة هذا التحدي ما تقرر في ظل الاسلام لمخالفيه من حريات في الاعتقاد، الأمر الذي جعل حواضر الدولة تزخر بالجدل الديني بين فقهاء الاسلام وخصومه، على نحو غير متكافىء، لأن الخصوم قد تسلحوا بأدوات ذات طابع عام، بل وعالمي، هي

---

(١) أنظر مادة « ثور » في (لسان العرب) لابن منظور.

العقل والمنطق والفلسفة، على حين خلت ترسانة القراء والفقهاء « النصوصيين » الا من النقول، آيات وأحاديث، وهي لا تلزم الا المؤمنين بها، والذين لا يحتاجون الى الزام! . .

والرواة يروون قصة وقعت أحداثها في عصر هارون الرشيد (١٤٩ ـ ١٩٣ هـ ـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩ م). . فلقد أخبر زعيم طائفة « السمنية » ببلاد السند ملكه أن البناء الفكري لدين الاسلام لا يستطيع الصمود اذا قامت مناظرة بينه وبين فقهاء المسلمين، ودعا ملكه الى أن يتحدى الرشيد أن يوفد كبير فقهاء دولته للمناظرة، على أن يكون المغلوب ملزماً بالدخول في دين الغالب! . . وقبل الرشيد التحدي، وبعث الى بلاد السند بأحد القضاة، وهناك دارت المحاورة بينه وبين «السمني» على هذا النحو:

السمني: أخبرني عن معبودك، هل هو قادر؟

القاضي: نعم.

السمني: فهل هو قادر على أن يخلق مثله؟! . .

القاضي: هذه المسألة من الكلام ـ (علم الكلام) ـ والكلام بدعة، وأصحابنا ينكرونه!

السمني: ومن أصحابك؟

القاضي: محمد بن الحسن، وأبو يوسف، وأبو حنيفة!

وعند هذا الحد التفت « السمني » الى مليكه وقال: « قد كنت أعلمتك دينهم، وأخبرتك بجهلهم وتقليدهم، وغلبتهم بالسيف! » . . وعاد القاضي مهزوماً الى بغداد، ومعه رسالة من ملك السند الى الرشيد يقول فيها: « اني كنت ابتدأتك وأنا على غير يقين مما حكي لي، والآن قد تيقنت ذلك بحضور هذا القاضي! » . . وثارت ثائرة الرشيد، وضاق صدره، وقامت قيامته، وأخذ يصيح: « أليس لهذا الدين من مناظر عنه؟! » . .

فهؤلاء الفقهاء الذين وقفوا عند ظواهر النصوص، وعافوا أدوات الجدل وقضايا المنطق ومقولات الفلسفة وبراهينها، كانت بضاعتهم كافية قبل أن تزخر الساحة بالمخالفين المسلحين بهذه الأدوات، لأن الجمهور كان « مؤمناً » بالنص المنقول، أما بعد أن صار للاسلام خصوم لا يؤمنون بمأثوراته ولا يسلمون عند الاحتجاج بها، فإن الأمر قد أصبح غير ما كان، ولابد لأهل الاسلام من أن يتقنوا هذه الصناعة ويجيدوا استخدام الأسلحة التي يتسلح به الخصوم.. لقد أصبح الواقع الفكري للحياة العربية الاسلامية يتطلب فرساناً غير « النصوصيين »، ويستدعي أسلحة غير « النقول والمأثورات » للدفاع عن الدين الاسلامي وعن حضارة العرب المسلمين.. وغدت الأمة العربية المسلمة تتطلع الى نمطها الفلسفي المتميز الذي تدافع به عن بنائها الحضاري الخاص.. فلابد من الاستجابة الايجابية تجاه ما فرض عليها من تحديات..

والرواة يكملون قصة مناظرة « السمني » مع قاضي الرشيد، فيقولون: ان نفراً من خاصة الرشيد قد أخبروه أن علماء الكلام وفرسانه الذين أبدعوه ـ وهم المعتزلة ـ هم وحدهم القادرون على مناظرة « السمني » وإفحامه، فلو أن الرشيد أخرجهم من سجونه لاستطاعوا الدفاع عن الاسلام!.. فأمر الرشيد باحضار سجناء المعتزلة، وعرض عليهم « مسألة » « السمني »، فأجابه شاب منهم، هو معمر بن عباد (٢١٥ هـ ـ ٨٣٠ م): « ان هذا السؤال الذي سأله السمني محال، لأن المخلوق لا يكون الا محدثاً، والمحدث لا يكون مثل القديم، فقد استحال أن يقال: يقدر أن يخلق مثله، أو لا يقدر، كما استحال أن يقال: يقدر أن يكون جاهلاً أو عاجزاً..!».

فجهز الرشيد جماعة من المعتزلة، وبعث بهم الى بلاد السند لمناظرة السمني والدفاع، بالفلسفة والجدل وعلم الكلام، عن الاسلام، بعد أن

عجز عن الدفاع عنه « النصوصيون » الذين وقفوا عند النقول والمأثورات[١].

فالمعتزلة، اذن، كانوا هم التجسيد للأسلحة الجديدة التي تسلحت بها الأمة دفاعاً عن حضارتها الوليدة ودينها الجديد أمام خصومها من أهل الملل والنحل والمذاهب والفلسفات الأخرى. .

ولقد كان (علم الكلام)، الذي ظهر في حضارتنا على يد المعتزلة، هو التعبير عن أصالة هذه الأمة وذاتيتها في الحقل الفلسفي، فلم يكن تقليداً للفلسفة اليونانية وترديداً لمقولاتها، كما لم يكن وقوفاً عند ظواهر نصوص الكتاب والسنة، وانما كان معالجة فلسفية، بأدوات الفلسفة، لقضايا الدين والعقيدة والحياة الخاصة بهذه الأمة. . ومن ثم كانت فيه المادة لمن يريد أن يلتمس ما أبدعه العرب المسلمون في الفلسفة والفكر الديني على السواء. .

ولا يستطيع أحد أن ينازع في أن نشأة هذا العلم كانت من ابداع المعتزلة، وأنهم ظلوا دائماً وأبداً أعظم الفرسان في ميدانه، وكما يقول الحاكم أبو السعد المحسن بن كرامة الجشمي (٤١٣ - ٤٩٤ هـ ١٠٢٢ - ١١٠١ م): « ان المعتزلة هم الغالبون على الكلام، الغالبون على أهله، فالكلام منهم بدأ، وفيهم نشأ، ولهم السلف فيه، ولهم الكتب المصنفة المدونة، والأئمة المشهورة، ولهم الرد على المخالفين من أهل الالحاد والبدع، ولهم المقامات المشهورة في الذب عن الاسلام، وكل من أخذ في الكلام، أو ما يوجد من الكلام في أيدي الناس، فمنهم أخذ، ومن أئمتهم اقتبس![٢] . . » .

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥ .

(٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٧١ .

ولقد دل هذا البناء الفكري الذي أبدعه المعتزلة على أنه التعبير عن خاصية هذه الأمة والترجمة لما تميزت به حضارتها عندما وازن بين المتناقضات. . فنحن أمام ما أبدع المعتزلة في علم الكلام لا نجد أنفسنا أمام فلسفة عقلية، فقط ، على نحو ما نجد لدى اليونان، ولا أمام دين، فقط، على نحو ما نجد عند « النصوصيين » والفقهاء. . وانما نطالع بناء فكرياً تدينت فيه الفلسفة وتفلسف فيه الدين! فبناته قد درسوا الفلسفة كي يدافعوا بها عن الدين، وجمعوا بين الفكر الديني الاسلامي وبين علوم الأوائل، فكان لنا منهم ذلك المزيج الجديد من الفلاسفة الالهيين. . وكما يقول « ألفريد جيوم » (Alfred Guillaume) في بحثه عن (الفلسفة وعلم الكلام): فإن « قوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما في طوقهم اقامة علم الكلام الاسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة، مصرين في الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية »[1] .

نعم. . لقد نهض المعتزلة، في علم الكلام، بهذه المهمة الصعبة، بل بأصعب المهام التي تطرح في أية ثقافة من الثقافات. .

والأمر الذي يزيد جهدهم هذا عظماً وعظمة أنهم كانوا ينهضون به وهم على وعي بالهدف الذي يريدون بلوغه والغايات التي يريدون تحقيقها. . فهم قد درسوا الفلسفة اليونانية، وإتصلوا بفكر الفرس والهنود، وادركوا أن الموقف الأسهل هو أن يميل المرء الى قطب من قطبي الظاهرة وطرف من طرفي الصراع، أما الصعب والأصعب فهو ابداع البناء الفكري المتوازن،

---

(١) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) ص ٣٧٩. طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة: تراث الاسلام سنة ١٩٧٢.

والذي يعبر عن شخصية الأمة المتميزة بالتوازن، ذات الحضارة التي توازن بين المتناقضات.. فالمنهج النقدي، والمقارن قد قام بدوره عند هؤلاء المبدعين..

ومهمة المعتزلة الصعبة، هذه يتحدث عنها الجاحظ، فيضع يدنا على نهجهم وسبيلهم عندما يقول في عبارات جامعة يصف فيها المتكلمين، وما يجب أن يكونوا عليه، فيقول - في كتاب (الحيوان) - « وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام، متمكناً من الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة. والعالم عندنا هو الذي يجمعهما، والمصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقها من الأعمال. ومن زعم أن التوحيد لا يصلح الا بابطال حقائق الطبائع، فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد، وكذلك اذا زعم أن الطبائع لا تصح اذا قرنها بالتوحيد، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع. وانما ييأس منك الملحد اذا لم يدعك التوفر على التوحيد الى بخس حقوق الطبائع، لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها، واذا كانت الأعيان هي الدالة على الله فرفعت الدليل، فقد أبطلت المدلول عليه، ولعمري أن في الجمع بينهما لبعض الشدة؟!.. وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل، انقضت ركناً من أركان مقالتي!، ومن كان كذلك لم ينتفع به![1] ».

هكذا أبدع المعتزلة للأمة فلسفتها المتميزة.. فكان علم الكلام الذي وازن بين ما حسبه ويحسبه الكثيرون مستعصياً على الموازنة، عصياً على الاجتماع: التوحيد - (الألوهية) -.. والطبائع - (الطبيعة والمادة وقوانينها)

---

(١) (الحيوان) جـ ٢ ص ١٣٤، ١٣٥ تحقيق عبد السلام هارون، طبعة القاهرة، الثانية.

والعقل . . والنقل :

يسلم الكثيرون بأن المعتزلة هم فرسان العقلانية في حضارتنا . . ولكن كثيرين أيضاً هم أولئك الذين يعتقدون أن هذه العقلانية قد كانت مما اكتسبه المعتزلة في فترة متأخرة، بعد أن ترجمت الفلسفة اليونانية على عهد العباسيين، وعلى عهد الخليفة المأمون بالذات (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) . . ولكن الحقيقة تدعونا الى القول بأن قسمة العقلانية عند المعتزلة قد تدعمت ونمت بترجمة فلسفة اليونان، ولكنها لم تبدأ بهذه الترجمة، فالمعتزلة، ومن قبلهم أسلافهم (أهل العدل والتوحيد)، قد مثلوا في تطورنا الفكري، بمراحله المبكرة، عقل هذه الأمة، الذي تأمل ونظر وتدبر كي يجيب عن الأسئلة التي طرحتها الحياة على المجتمع والناس . . فمنذ نشأتهم الأولى امتازوا وتميزوا بالنظر الفلسفي في أمور الدين، فهم، اذن، يمثلون تياراً عقلياً في الفكر العربي الاسلامي حتى قبل حركة الترجمة عن اليونان وغيرهم من القدماء . .

فابن سعد ـ صاحب (الطبقات الكبرى) ـ يصف الحسن بن محمد بن الحنفية ـ أستاذ غيلان الدمشقي ـ بأنه « كان من ظرفاء بني هاشم، **وأهل العقل منهم!** »[١] . .

ومعبد الجهني (٨٠ هـ) وأتباعه ـ وهو من اعلام (أهل العدل والتوحيد) ـ نقرأ في وصف طريقته وطريقة أتباعه في التأمل والنظر والبحث عن الحقيقة ما كتبه البعض حين قال : « انه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن، ويتقفرون العلم »، أي يطلبونه، ويتتبعونه، ويجمعونه، ويبحثون عن غامضه، ويستخرجون خفيه[٢]! . .

(١) (طبقات ابن سعد) جـ ٥ ص ٦٧ .

(٢) (صحيح مسلم) ـ بشرح النووي ـ جـ ١ ص ١٥٥، ١٥٦ . طبعة القاهرة (محمود توفيق) .

فهو موقف قديم، ونهج عريق، وقسمة أصيلة من قسمات أهل العدل والتوحيد.

ولقد نبعت هذه القسمة الاعتزالية من مكانة العقل عندهم، والمركز الذي أحلوه اياه اذا ما قيس بالنصوص والمأثورات..

وفي الحق فإن مقام العقل عند المعتزلة هو صفحة من الصفحات المشرقة في حضارة العرب والمسلمين.. فالعقل عندهم هو « وكيل الله » عند الانسان، جعل اليه أزمة أموره، وقيادة نشاطاته.. وهم يطلبون أن يدعم الانسان عقله الغريزي بعقله المكتسب، فذلك هو السبيل لبلوغ غاية الكمال - كما يقول الجاحظ في (الرسائل)[1].

والمعتزلة عندما يعرضون للأدلة وترتيبها، يختلفون اختلافاً أصيلاً عن أصحاب الحديث وعامة أهل السنة في تعداد هذه الأدلة وترتيبها، فهي عند أهل السنة ثلاثة: الكتاب، والسنة، والاجماع.. على هذا الترتيب.. بينما هي أربعة عند المعتزلة، يضيفون العقل الى هذه الأدلة الثلاثة، ويقدمونه عليها جميعاً، بل ويرون أنه الأصل فيها جميعها.. !.. فيقولون - بعبارات القاضي عبد الجبار في كتابه (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) -:

« والأدلة: أولها: دلالة العقل، لأن به يميز بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والاجماع. وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هي: الكتاب، والسنة، والاجماع، فقط، أو يظن أن العقل اذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب الا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة وكذلك السنّة، والاجماع، فهو الأصل في هذا الباب. وان كنا نقول:

---

(١) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٩٢.

إن الكتاب هو الأصل من حيث ان فيه التنبيه على ما في العقول، كما أن في الأدلة على الأحكام. وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وبين أحكام الفاعلين. ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه أو بما يأتيه، ومن يحمد ومن يذم، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له. «ومتى عرفنا بالعقل إلهاً منفرداً بالالهية، وعرفناه حكيماً، نعلم في كتابه أنه دلالة، ومتى عرفناه مرسلاً للرسول ومميزاً له بالأعلام المعجزة من الكاذبين، علمنا أن قول الرسول حجة. واذا قال ﷺ: «لا تجتمع أمتي على خطأ، وعليكم بالجماعة»، علمنا أن الاجماع حجة»[1]..

فالعقل هو أول الأدلة، وليس ذلك فقط، بل هو أصلها الذي به يعرف صدقها، وبواسطته يكتسب الكتاب والسنة والاجماع قيمة الدليل «الفلسفة لأن حجة القرآن موقوفة على حجية الرسالة، وهما موقوفتان ومتوقفتان على التصديق بالألوهية، لأنها مصدرهما، فوجب أن يكون لاثبات الألوهية طريق سابق عليها، وهذا الطريق هو برهان العقل!..

وكذلك الحال في معرفة الأصول الشرعية، فسبيلها، عند المعتزلة: العقل، ومعرفة لسان العرب.. وبعبارة الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) في كتابه (أدب القاضي): أن «السبب المؤدي الى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيئان:

أحدهما: علم الحس، وهو العقل، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، اذ ليس تعرف الأصول الا بحجج العقول..

وثانيهما: معرفة لسان العرب - وهو معتبر في حجج السمع خاصة ..»[2].

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٢٧.

(٢) الماوردي (أدب القاضي) جـ ١ ص ٢٧٤، ٢٧٥، طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م.

وهذه المكانة العالية التي وضع المعتزلة العقل فيها، وتقديمهم له على غيره من الأدلة، أدلة المعرفة الدينية، ما تعلق منها بالأصول أو بالفروع، قد قادت المعتزلة الى حيث تميزوا عن أصحاب الحديث في الموقف من: نوع العلاقة بين «المعقول» و «المنقول»، وأيهما الأصل والأساس؟ ومن منهما الذي جاء بياناً وتفصيلاً للثابت والأولى والأصيل؟؟ . . وهذه القضية قد عرض لها المعتزلة في مجالات عدة، من أشهرها قضية: الحسن والقبح، هل هما ذاتيان، أي يدركان بالعقل دون توقف على النص والمأثور؟ ـ وهو مذهب المعتزلة ـ أو أن الشيء حسن أو قبيح لأن هناك نصاً يقول لنا: ان هذا حسن وهذا قبيح؟ ـ وهو موقف جمهور أهل السنة وأصحاب الحديث. .

لقد اعتمد المعتزلة على العقل، ووثقوا بحكمه في التحسين والتقبيح، دونما حاجة الى النصوص والمأثورات. . لأن الحسن والقبح عندهم ذاتيان، أي طبيعيان، فهم هنا يعطون العوامل الطبيعية وزنها الحقيقي، ويجعلون ادراكها وظيفة من وظائف العقل، دونما دخل في شيء من ذلك للنصوص والمأثورات. . بل لقد أوجبوا عرض هذه النصوص والمأثورات على العقل، فهو الحكم الذي يميز صحيحها من منحولها، ولا عبرة بالرواة ورجال السند، مهما كانت هالات القداسة التي أحاطهم بها المحدثون، وانما العبرة بحكم العقل في هذا المقام. .

وهذا التقديم للعقل وبراهينه على النقل ونصوصه قاد المعتزلة الى القول بأن الشرع لم يأت، مطلقاً، بما يخالف العقل، بل ان ما جاء به إما أن يكون واجباً بالعقل أو جائزاً في نظره. . ولا يأتي بما حظره العقل أو أبطله. . وحجتهم على ذلك أن أدلة الشرع وأمثالها لا يعقلها الا العالمون من ذوي العقول، وهذا هو المراد بقول الله سبحانه: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ ـ «العنكبوت: ٤٣» ـ وبقوله: ﴿ان في ذلك

لآيات لأولى النهى﴾ ـ طه: ٥٤ ». . وهكذا كانت حجج العقل وبراهينه قاضية وحاكمة على حجج السمع. . ولذلك ـ كما يقول الماوردي في (أدب القاضي): « سمى كثير من العلماء العقل: أم الأصول![1] ». .

وإذا كان مستحيلاً، عند المعتزلة، أن يأتي لشرع بما يحيله العقل أو يبطله، فما وظيفة الشرع اذن؟. . ان وظيفته أن يفصل ما هو مجمل في العقل، ويقرر ما هو مركب فيه، ويؤكد ما أودعه فيه الخالق سبحانه. . وبعبارات القاضي عبد الجبار في (شرح الأصول الخمسة)، والماوردي في: (أدب الدنيا والدين) « فإن ما يأتي به الرسل لا يكون الا لتفصيل ما تقدر جملته في العقل. . ان وجوب المصلحة وقبح المفسدة متقرران في العقل. . . والرسل قد جاءوا بتقرير ما قد ركبه الله تعالى في عقولنا، وتفصيل ما قد تقرر فيها. . »[2].

وكما رفض المعتزلة اتخاذ النقل، من دون العقل، سبيلاً للمعرفة، كذلك رفضوا طريق التقليد، لأن التقليد كما يكون في الحق يكون في الباطل، وكما يكون في الصحيح يكون في الفاسد، وكما يكون فيما ثبت بالدليل يكون فيما لا دليل عليه. . وهذا مَعْلَمٌ هام من المعالم المميزة بينهم وبين أهل السنة وأصحاب الحديث[3]. .

ولقد كان طبيعياً لمن يقدمون العقل في أمور الدين أن يقدموه في أمور الدنيا، وأن يكون هو الأساس والعماد في كل ما يتعلق بهما جميعاً، فالأمر عندهم ـ كما يقول الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين) ـ: « ان لكل

---

(١) المصدر السابق: جـ١ ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٢) (شرح الأصول الخمسة) ص ٥٦٥. والماوردي (أدب الدنيا والدين) ص ٩٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م.

(٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٧٠.

فضيلة أسًّـا، ولكل أدب ينبوعـاً، وأس الفضـائل وينبـوع الآداب هـو العقل، الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وألف به بين خلقـه، مع اختـلاف هممهم ومـآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصـدهم، وجعل مـا تعبـدهم بـه قسمين: قسماً وجب بالعقل، فوكده الشرع، وقسماً جاز في العقل، فأوجبه الشرع، فكان العقل لهما عماداً.. »[١]

ذلـك هو مقـام العقل عنـد المعتزلـة، قدمـوه وسودوه، وكـان تقديمـه وسيادته قسمة من القسمات التي امتازوا بها عن غيرهم، أو أكثر من غيرهم من فرق الاسلام.. ومع ذلك فهم لم يهملوا النقل والمأثورات، وانما جعلوا العقل حاكماً تعرض عليه المأثورات كي يفصل في صحتها، رواية ودلالة، وأكدوا توازن موقفهم عندمـا نبهوا عـلى أن: العقل حجـة لله ودليل لـدى الانسـان، وكذلـك الكتاب.. ومحـال أن يتناقض دليـلان مخلوقان لخـالق واحد، لأن الغاية منهما معاً هداية الانسان وسعادته في الدنيا والآخرة..

وعلماء مجربون:

والمعتزلة لم يكونوا فقط، كما يظن الكثيرون، علماء في الدين، وفلاسفة في الالهيات.. وانما كانوا: فرساناً في القتال، وثواراً في السياسة، ومتبتلين في العبادة، وزهاداً في عرض الدنيا، ورجال دولـة، وأدباء وشعـراء ورواة ونقـاداً.. وأيضاً: علماء بـالمعنى العام لهـذا المصطلح.. وذلـك فضلاً عن علمهم الديني والمباحث التي أبدعوها بعلم الكلام.. لقـد كانـوا أكثر من فرقة دينية.. كانوا علماء بالمعنى الحضاري، بل وصناعاً للحضارة التي نفخر

---

(١) (الحيوان) جـ ١ ص ٢١٦، ٢١٧.

بها اليوم. . أليس عصرها الذهبي الذي نعتز به ونستدفىء بذكرياته وانجازاته هو عصر الخلفاء الذين تمذهبوا بمذهبهم؟ المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) والمعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٨ هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٨ ـ ٢٣٣ هـ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م)؟؟. .

والذين يقرأون كتب الجاحظ، مثلاً، وخاصة (الحيوان) يرون هذا الجانب من جوانب علم المعتزلة، فهو يورد لأعلامهم تجارب وملاحظات واستقراءات في العلوم، وفي دراسات الحيوان بالذات. . كما يشير الى ما لبعضهم من جهود في الفلك وأبحاث في النجوم. . ومن النصوص ذات الدلالة ذلك النص الذي يسخر فيه الجاحظ من هؤلاء الذين يعيبون اشتغال عدد من أئمة المعتزلة بالبحث والتجريب في الحيوان، والملاحظة والاستقراء «لقدر الكلب ومقدار الديك». . ويدافع الجاحظ عن هؤلاء الباحثين في هذه الميادين، واصفاً اياهم بأنهم من «جلة المعتزلة، أشراف أهل الحكمة» ويقول: «ان مثل هذا العلم يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة والكهول العلية، وحتى يختاروا النظر فيه على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب في الصلاة، وحتى يزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد! . . »[1].

وفرسان الدفاع عن الاسلام:

ولقد كان طبيعياً لفرقة هذه أسلحتها الفكرية، وذلك مبلغ تمرسها واجادتها لاستخدام أسلحة الخصوم الفكريين، وتلك هي الميادين التي شملها علم علمائها ومفكريها. . كان طبيعياً أن تكون هذه الفرقة هي أقدر

---

(١) (الحيوان) جـ ١ ص ٢١٦، ٢١٧.

فرق المسلمين على الدفاع عن الاسلام تجاه التحديات. . . فالخوارج كانوا في شغل عن تلك المهمة بالحرب المتصلة التي لا تدع وقتاً ولا جهداً للفكر النظري ومجادلة خصوم الاسلام. . والشيعة كانوا في شغل باتقاء اضطهاد الأمويين، وتجسيد أحزانهم ومأساتهم كي تتحول الى رباط عاطفي يكسب الأنصار ويديم لفرقتهم البقاء، كما شغلوا بنظريتهم في الامامة وحكايات فضل أهل البيت عن أغلب الأمور الأخرى. . . والمرجئة والجبرية الأموية كانوا « أهل حشو » يقفون عند ظواهر النصوص، ومن ثم فلا جلد لهم ولا قدرة على جدل خصوم المسلمين بمنطق أرسطو وحكمة الفرس وفلسفة الهند واليونان. . أما المعتزلة فقد كانوا هم الفرقة الاسلامية التي تصدت للدفاع عن الاسلام ضد خصومه، بل واتخذت موقع الهجوم على هؤلاء الخصوم. .

ففي العهد العباسي انتعشت مذاهب « المانوية » وفرقها، واستعادت قوتها، ودخلت في صراع فكري ضد عقائد الاسلام، واستند هذا الصراع المانوي الى عصبية شعوبية، مستترة أو ظاهرة، كانت تحتل المراكز الحساسة في جهاز الدولة العباسي. . فاستطاعت المانوية أن تشيع الزندقة والالحاد والاستخفاف بالدين في الحياة الفكرية، وان تشيع الفكر الشعوبي في الحياة القومية والسياسية. . وتصدى المعتزلة للمانوية وفرقها، فدرسوا منطق أرسطو وفلسفة اليونان ـ التي هي أسلحة الخصوم ـ واطلعوا على مؤلفات الجدل المسيحي في العصر « الهلنستي » حتى استطاعوا ـ كما يقول « جب » (Gibb) (١٨٥٦ ـ ١٩٠١ م) في كتابه (دراسات في حضارة الاسلام) ـ: « أن يقارعوا الثنوية حجة بحجة، وأن يفحموهم، وأن ينشئوا الفلسفة الأخلاقية المستمدة من القرآن »[١]. .

ولقد كان الارتفاع التدريجي لنجم المعتزلة، منذ نهاية عهد الرشيد،

(١) جب (دراسات في حضارة الاسلام) ص ٦. طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ م.

مقروناً بانحسار المد « المانوي ـ الشعوبي » عن الحياة الفكرية والسياسية للعرب والمسلمين في ذلك التاريخ . .

ويكفي أن نشير، للدلالة على الجهد الذي قدمه المعتزلة على هذه الجبهة ـ جبهة الدفاع عن الاسلام ضد خصومه ـ الى أن الجزء الخامس من (المغنى في أبواب التوحيد والعدل) للقاضي عبد الجبار، قد أفرد للرد على الفرق غير الاسلامية، من ثنوية، ونصارى، ووثنيين . . الخ . . الخ . . وإنْ تناول المعتزلة لفكر هذه الفرق، في مؤلفاتهم، لم يكن كتناول مؤرخي الملل والنحل والمقالات، عرضاً للآراء وتقريراً للمذاهب، وانما كان بياناً لحجج المعتزلة التي قدمتها في صراعها الفكري والحضاري مع هؤلاء الخصوم الفكريين . .

والمعتزلة لم يدافعوا فقط هذا الهجوم عن عقائد الاسلام، بل طاردوا هؤلاء الخصوم، وكسبوا الى الاسلام أنصاراً جدداً كثيرين، حتى لقد كانوا أبرز من عمل على نشر الاسلام في البلاد المفتوحة، والوحيدين الذين استطاعوا أن يقنعوا بالاسلام أولئك الذين عرفوا مذاهب الفلسفة وأسلحة الأقدمين في الجدل . . ومما يروى عن أبي الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ ٨٧٩ م) ـ وهو الذي اكتملت في عصره أصول المعتزلة الخمسة ـ أنه قد دخل الاسلام على يديه ما يزيد عن ثلاثة آلاف رجل . . . أما أبو سهل بشر بن المعتمر الهلالي (٢١٠ هـ) فلقد نذر « ووظف على نفسه أن يدعو كل يوم نفسين الى دين الله، فإن أخطأه يوماً قضاه! »[١] . .

بل ويذكر الذين يؤرخون لهذا العصر ـ ومنهم « جيوم » في كتابه (الفلسفة وعلم الكلام) ـ أن نفوذ المعتزلة قد ترك آثاره الفكرية البارزة على فكر علماء الكلام اليهود، حتى شابهت آراء اليهود آراء المعتزلة في كثير من

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥١ .

القضايا، لا لأخذ المعتزلة عن اليهود - كما يروج خصومهم - وانما لما تمتع به المعتزلة من «نفوذ عميق على مفكري اليهود»[1] الذين كانوا قد تعايشوا واندمجوا في الدولة الجديدة، وخاضوا في الجدل مع مختلف القوى الفكرية فيها..

هـ[illegible] المعتزلة فرسان الدفاع عن الاسلام، بل والدعوة اليه، لأنهم كانوا أكثر امتلاكاً لأدوات هذا الفن ممن عداهم من فرق الاسلام..

---

(١) (الفلسفة وعلم الكلام) ص ٣٨٤.

القوى الاجتماعية التي يمثلونها

كانت العصبية العربية هي الامتداد « لبداوة » الجاهلية، بما اتسمت به من ضيق أفق قصر بها عن أن تبصر ضرورات الانصهار القومي والتوحد الحضاري للقبائل والشعوب في اطار جديد ومستنير. . وكانت العصبية الشعوبية هي الامتداد لمواريث الدولة الفارسية القديمة والتجسيد لأحلام الدهاقنة - (كبار ملاك الريف) - والموابذة - (رجال الدين المجوس) - والأصابذة والأساورة - (قادة الجيش الكسروي) - أحلامهم في فلك عرى الدولة العربية المسلمة، والعودة الى مجتمعهم الاقطاعي ذي الطبقات المغلقة الذي تحمي الاستغلال فيه، بل وتقدسه، عقيدة الحكم بالحق الالهي . .

ومن ثم فلقد كانت النزعتان المتعصبتان أبعد ما تكونان عن روح الاسلام المتقدمة والمستقبلية والانسانية، وأبعد ما تكونان عن مصالح القوى الاجتماعية الصاعدة التي أخذ الاسلام بيدها، والتي حملت لواءه، فبنت دولته، ثم خرجت بسيوفها فأطاحت بعروش الحكم بالحق الإلهي وسيطرة الاقطاع في أرض كل من فارس والروم . .

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول ان هذه القوى الاجتماعية الصاعدة،

بصرف النظر عن أصولها العرقية ومواريثها الحضارية، هي التي:

* رفضت العصبية العربية ذات الطابع البدوي والضيق الأفق.
* ورفضت النزعةالشعوبية ذات المضمون الفارسي الجاهلي.
* وبشرت بالانصهار القومي لأبناء الدولة الجديدة جميعاً، على أساس حضاري وبمضمون انساني ومستنير. لأن مصالحها كانت مع الوحدة القومية، وآفاقها كانت مع التقدم والمستقبل، وليس مع بداوة الأعراب أو اقطاع الفرس القديم..

* ورأت في عقلانية الاسلام ـ كدين اقتصد في الغيبيات وكحضارة تعلي من قدر العقل والانسان ـ أداة البحث والنظر والتدبر الكفيلة، حقاً، بجعل هذه الأمة: الوارث الشاب لمواريث الحضارات العريقة المحتضرة، الأمر الذي يجعلها، بحق، خير أمة أخرجت للناس..

وإذا كان المعتزلة هم الطلائع التي حملت هذا الفكر وبشرت به.. فما هي، على وجه التحديد، القوى الاجتماعية التي كانت مصالحها وميولها مع هذا الفكر الجديد؟؟ والتي كان وضوح انتشار الاعتزال في صفوف أبنائها الدليل على تمثيل المعتزلة لها في هذاالصراع الفكري والسياسي الذي شهدته خريطة المجتمع العربي الاسلامي في ذلك التاريخ؟؟..

نحن نعلم أن الموقع الجغرافي الحاكم للعالم العربي، والذي جعله همزة الوصل بين أوروبا ومراكز التجارة في آسيا والشرق الأقصى والصين، قد جعلت، تاريخياً، من هذا العالم معبر التجارة العالمية وطريقها، ولقد أدى ذلك الى النمو المبكر لفئات التجار وطبقتهم في البلاد، والى أن أصبحت طرق التجارة شرايين توحيدية تربط أجزاء هذه المنطقة، وخاصة بعد أن وحدتها فتوحات العرب المسلمين.

وهؤلاء التجار، الذين كانوا هم العلماء والمفكرين والمتكلمين والفقهاء

في ذات الوقت، كانوا أميل الى العقلانية، بحكم بيئاتهم وآفاقهم المستنيرة وبحكم تفاعلهم مع أبناء الحضارات العريقة من غير العرب، كما كانوا أكثر القوى الاجتماعية نزوعاً الى الوحدة القومية، لأن وحدة المجتمع تعني، بالنسبة لمهمتهم العالمية، المزيد من الازدهار. . ومثلهم في ذلك كان أهل الحرف والصناعات. .

ونحن نعلم كذلك أن العقلانية والتفكير العقلي، وتقديم البراهين العقلية على ظواهر النصوص المأثورة هي سمات تنفر منها، مثلاً، حياة البدو النازعة الى البساطة والسذاجة، كما تنفر منها البيئة الزراعية التي تروج فيها الخرافة ويشيع فيها الايمان بالخوارق واللامعقول.

فهل كان، اذن، للمعتزلة، رجالاً وتنظيماً، وللبيئة التي عاشوا فيها، وخاصة المدن التي غلب عليها فكرهم وشاعت فيها أصولهم الخمسة، علاقة اجتماعية، مثلاً، بالتجارة والحرف والصناعات التي تؤهل أصحابها، عادة، في مثل تلك المجتمعات والبيئات، لأن ينزعوا الى العقل والعقلانية أكثر مما تؤهل لذلك بيئة البدو وحياة الزراعة والريف؟. . وبالتحديد: هل الطابع التجاري والحرفي والصناعي ملحوظ في صفوف المتزلة، وبالذات في بيئاتهم والمواطن التي انتشر فيها فكرهم؟. . وهل نستطيع أن نقول: ان أصحاب هذه النزعة العقلية كانوا متميزين اجتماعياً، وان هذا الوضع الاجتماعي المتميز كان أحد العوامل التي ميزتهم ذلك التميز الفكري الذي أشرنا الى أبرز قسماته؟؟

إن محاولة الاجابة عن هذا السؤال تصطدم بندرة الحقائق والوقائع والمعلومات. . فالتأريخ للمعتزلة ورجالهم وجمهورهم هو من أصعب الأمور، لأنه تاريخ لتنظيم سري، تقريباً، ومضطهد في أغلب عهوده، وما كتب حوله من مادة، في تاريخه القديم، قد باد بعد المحنة العامة التي

تعرضوا لها منذ عصر المتوكل العباسي.. ومع كل ذلك، فإن «البحث المستقصي يضع يدنا على عدد من الحقائق ترشح الاجابة بنعم وبالايجاب عن ذلك السؤال الذي طرحناه، وتشير الى أن جمهور البيئات التي انتشرت فيها هذه النزعة «العقلية - القومية» قد كانوا ذوي صلة اجتماعية وثيقة بالتجارة والحرف والصناعات، وأن المدن والقرى التي غلب عليها الاعتزال كانت ذات صلة وثيقة بالتجارة والتجار في تلك العصور. فمثلاً:

١ - في أسماء عدد غير قليل من أئمة المعتزلة نلحظ ألقاباً تربطهم بصناعة من الصناعات أو حرفة من الحرف أو لون من ألوان التجارة.. أو على الأقل بقطاع المدن والأحياء السكنية الخاصة بأصحاب هذه الصناعات والحرف والتجارات..

* فواصل بن عطاء.. يلقب بالغزال - وحتى الذين ينفون عنه الاشتغال بصناعة الغزل يعللون تلقبه بهذا اللقب بعلل لا تبتعد به عن الغزالين.. فالبعض يقول: انه كان يسكن في حي الغزالين، أي أنه قد كان للغزالين حي خاص بهم، سكن فيه واصل - واتخاذ الحرف وأصحابها للأحياء الخاصة هو سمة من سمات المدن في تلك العصور -.. ومنهم من يقول انه كان يلزم حانوت غلام له يشتغل بصناعة الغزل وحرفته.. وفي كل الأحوال والتفسيرات فهناك اتفاق على أنه كان يسكن حي الغزالين ويعيش بين دكاكينهم..

* وعمرو بن عبيد بن باب.. هناك من يقول ان أباه كان تاجراً، صاحب دكان.. ومن يقول: انه كان نساجاً، صناعته النسج..

* وابراهيم بن سيار النظام.. سمي بالنظام لأن نظم الخرزكان صناعته..

* وأبو الهذيل العلاف.. سمي بالعلاف، إما لأنها كانت حرفته، أو

لأنه كان يسكن في حي العلافين، على خلاف في ذلك . .

* وهشام بن عمرو **الفوطي**. . هناك من يقول ان تسميته بالفوطي جاءت من تجارته في « الفوط ». .

* ومحمد بن سيرين. . وهناك اتفاق على أنه كان **تاجراً** من تجار النسيج (بزازاً). .

* وعثمان الطويل ـ كان **تاجراً**. .

* وأبو رجاء مصر بن طهمان، الوراق (١٢٩ هـ). . كانت **الوراقة** حرفته وتجارته . .

* وأبو عبد الله الحسين بن علي بن ابراهيم، **الكاغدي** (٣٠٨ ـ ٣٩٩ هـ). . لتلقيبه بالكاغدي علاقة بهذه الحرفة .

* وأبو يعقوب يوسف بن عبدالله، **الشحام**. . يوحي تلقيبه بالشحام بما له بهذه الحرفة من علاقة . .

* وأبو الحسين بن أبي عمر، **الخياط**. . له هو الآخر علاقة بالحرفة التي لقب بها . .

* والجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. . يقول عنه ياقوت: انه رؤي يبيع **الخبز والسمك** في حي سيحان، من أحياء البصرة، كما أن من بين آثاره الفكرية (كتاب التبصر بالتجارة)، الذي لعله من أقدم الآثار التي أفردت للبحث في هذه الحرفة في تراثنا . . . .

هذه النماج من أعلام المعتزلة، وان كانت قد جاورتها أسماء أعلام آخرين ملكوا الأرض أو ورثوها، الا أنها تعطي دلالة على الوضع الاجتماعي لعدد من أئمة المعتزلة ومفكريهم، والبيئة الاجتماعية، التجارية

والحرفية والصناعية، التي كانت أكثر البيئات في ذلك العصر نزوعاً للعقلانية واقبالاً على ثمار العقل واستخداماً لبراهينه في البحث والتنقيب . .

٢ ـ والحقيقة الثانية التي تؤكد ما نذهب اليه، ترقى بهذا الرأي الذي نراه الى مرتبة الحقيقة التي تبعث على الاطمئنان. . ذلك أن المدن والمناطق والقرى التي غلب عليها الاعتزال، والتي ذكرها وعدد أهمها أبو القاسم البلخي (٣١٩ هـ ٩٣١ م) في كتابه القديم عن (مقالات الاعلاميين) تلفت نظرنا الى تمركزها وارتباطها بطرق التجارة الرئيسية التي كانت تمر عبر الدولة العربية الاسلامية كي توصل تجارة آسيا الى أوروبا، وهي التي كانت أهم طرق للتجارة العالمية في ذلك التاريخ[١] . .

فحول طريق التجارة البري القادم من الصين شرقاً الى بغداد انتشرت مدن المعتزلة وقراهم ومواطن نفوذهم في اقليم فارس، الذي هو الأقليم الجنوبي من ايران. . وحول طريق التجارة البحري القادم من الصين والهند الى الخليج العربي، انتشر الاعتزال في الموانىء التي قامت على الشاطىء الشرقي للخليج، مثل « تيز » و « سيراف » وغيرها من الموانىء والمدن التي جاورتها في اقليم فارس. . كما انتشر الاعتزال كذلك في ميناء البصرة وفي الأبلة، وهي موانىء العراق التي كانت تستقبل التجارة التي يأتي بها هذا الطريق البحري الآتي من الهند والصين. .

ومع هذا الطريق التجاري انتشر الاعتزال حتى أرمينية، التي كانت على مقربة من منطقة انتقال هذه التجارة الى القسطنطينية. .

أما طريق التجارة الثاني الذي كان يأتي، بحراً، من الهند والصين، ليصل الى جنوبي اليمن، ثم يصعد الى صنعاء فمكة والمدينة فدمشق

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٠٤ ـ ١١٠ .

فحلب، فإن التوزيع الجغرافي لمناطق نفوذ المعتزلة في شبة الجزيرة وفي الشام يلفت النظر الى اقتران مناطق الاعتزال بطريق التجارة هذا أوثق اقتران. . فكل محطات تجارة هذا الطريق كانت مواطن نفوذ للاعتزال، والثورة التي قامت بها المعتزلة ضد الخليفة الأموي الوليد بن يزيد (٨٨ - ١٢٦ هـ ٧٠٧ - ٧٤٤ م) ونصبت فيها امامها يزيد بن الوليد (٨٦ - ١٢٦ هـ ٧٠٥ - ٧٤٤ م) قد قامت من الأصقاع التي غلب عليها وعلى أهلها القول بالعدل والتوحيد الى الشمال من دمشق، وعلى الطريق التجاري الذي يربطها بحلب، ثم يصعد بعد ذلك الى آسيا الصغرى فالقسطنطينية . .

وعلى سبيل المثال فنحن نعد من مدن المعتزلة وقراها الكبرى - التي ذكرها البلخي - والتي تقع على الطريق التجاري البري الآتي من الصين، شرقاً، الى بغداد، مدناً وقرى مثل: السوس، والبيلقان، والصيمرة، وعسكر مكرم، ورامهرمز، وجندي سابور، والدورق، وأرجان. . الخ . . الخ . .

وعلى الطريق التجاري الآتي من الهند والصين، بحراً، بعد دخوله الى اقليم فارس، نستطيع أن نذكر من مدن الاعتزال، على سبيل المثال: توز، وسيراف، وعبدان، وجيرفت، والسيرجان، وهراة، وتيز. . الخ . . الخ . .

وعلى الشاطيء الغربي للخليج، نستطيع أن نذكر من مدن التجارة ومحططاتها، التي كانت مواطن انتشر فيها الاعتزال: البحرين، وهجر، والبصرة، والأبلة . .

فإذا صعد طريق التجارة من بغداد شمالاً، وجدنا على متنه من المدن التي غلب عليها الاعتزال: ميافارقين، أشهر مدن ديار بكر، وبرذعة، بأرمينيا. . الخ . . الخ . .

كما نعد من حواضر التجارة ومحطاتها قرب البصرة وعلى طريقها مع واسط، مما غلب عليه الاعتزال مدناً مثل: الملح، وعبدسي، والمذار.. الخ.. الخ..

أما طريق التجارة الذي يصعد من عدن، شمالاً، حتى يصل الى آسيا الصغرى فأوروبا، فإن من بين محطاته ومدنه التي ظهر فيها الاعتزال أو غلب عليها مدناً ومحطات مثل: صنعاء، ونيس، ونيسان، وتدمر، ونهيا، وارك، وعرض، وسمنة، والعربيس، وبلاد المدارج، وداريا، وبيت لهيا، وكفر سوسية... الخ... الخ..

وحتى الأجزاء التي انتشر فيها الاعتزال بالمغرب، مثل البيضاء، وطنجة، فإنها كانت مواطن للتجارة بين أفريقيا وبين الأندلس..

فلن نكون مغالين اذا قلنا ان خريطة المواطن التي انتشر فيها فكر المعتزلة وسادتها نزعتهم « العقلانية ـ القومية » كانت هي خريطة التجارة وطرقها ومواطن التجار ومحطاتهم.. وفي ذلك ما يشير الى الطبيعة الاجتماعية المتميزة التي أثمرت تلك القسمة العقلانية المتميزة في فكرنا العربي الاسلامي والى القوي الاجتماعية التي جسد المعتزلة طموحها نحو مجتمع متحد، يمنح ولاءه لحضارة تتميز بالعقلانية.. ورفضها لقبلية البدو وشعوبية الاقطاع الفارسي القديم..

الثورة في سبيل الخلافة الشورية

كانت النزعة العقلانية عند المعتزلة تجسيداً لموقف أمتنا الايجابي ضد التحدي الذي تمثل في الهجوم الفكري للملل والنحل والمذاهب التي نازلت الاسلام على أرضه بعد عصر الفتوح، عندما عجز « النصوصيون » عن الوفاء بحق الدفاع عن هذا الدين، ومن ثم عجزوا عن امتلاك الأدوات العقلية الكفيلة بصياغة البناء الحضاري الذي أصبح العرب المسلمون مؤهلين له ومطالبين به من قبل حركة التاريخ . . ولقد أنجز المعتزلة، بنزعتهم العقلية، هذه المهام، فكانوا الصناع الحقيقيين لما نعتز به الآن من تراثنا في هذا الميدان . .

وكانت بواكير الفكر القومي العربي التي صاغها المعتزلة تجسيداً لموقف القوى الاجتماعية ـ العربية والتي تعربت ـ الرافضة بقبلية البدو وشعوبية الفرس الذين تحركهم المصالح الاقطاعية وتبغضهم في العرب والعروبة الأحقاد والثارات . . ولقد وضع المعتزلة بفكرهم القومي المستنير هذا الأساس لقوميتنا التي سبقت في الظهور كثيراً من القوميات . .

وكما كان فكر المعتزلة هذا جواب أمتهم وموقفها الايجابي أمام هذه

التحديات، كذلك كان نشاطهم السياسي العملي وكانت ثوراتهم التجسيد لرفض القوى الاجتماعية المتقدمة لما أحدثه الأمويون من تغييرات في طبيعة السلطة العليا للدولة ـ (الخلافة) ـ تلك التغييرات التي بدلت فلسفة الحكم، فبدلاً من الشورى والبيعة والاختيار، أصبح وراثة وملكاً عضوداً.. وعلى هذه الجبهة كان المعتزلة ـ الحزب السياسي، والنشاط العملي، والمعارضة، والثورة المسلحة ـ التعبير عن رفض تلك التغييرات، وعن الطموح الى عودة الخلافة الشوروية من جديد..

وللمعتزلة الثوار صفحات عدة في سجل الثورة بالمجتمع العربي الاسلامي ـ (أنظر: الثورة) ـ نثبت هنا اشارات لها، ونورد أهم عناوينها، لتتضح صلاتها الوثيقة بالشورى كفلسفة حكم، وتمثيلها لرفض القوى الاجتماعية المتقدمة تلك الردة السياسية التي مثلها ملك بني أمية قياساً على دولة الخلفاء الراشدين.

الاسهام في ثورة ابن الأشعث:

فالمعتزلة (أهل العدل والتوحيد) قد أسهموا في الثورة التي قادها عبد الرحمن بن الأشعث (٨٥ هـ ٧٠٤ م) ضد الحجاج بن يوسف وخليفته الأموي عبد الملك بن مروان.. ومن أعلامهم الذين ذكرت مصادر التاريخ إسامهم في هذه الثورة: معبد الجهني، والجعد بن درهم، وسعيد بن أبي الحسن ـ وهو أخو الحسن البصري ـ... الخ.. الخ[1]..

والاسهام في ثورة الحارث بن سريج:

وأسهموا في الثورة التي قادها عظيم الأزد: الحارث بن سريج ضد

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٠. و (تاريخ الطبري) جـ ٨ ص ١٥١، ١٥٢، (حوادث سنة ١٠٢ هـ) وجمال الدين القاسمي (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٥٥.

هشام بن عبد الملك سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م). . وكان من مطالب هذه الثورة: أن يعود الأمر ـ (نظام الخلافة) ـ شورى. . وأن تغير العمال. . وأن تعزل الشرط. . وأن يشترك الناس في اختيار الولاة[1]. . .

والثورة بقيادة زيد بن علي:

وكانت أولى الثورات التي قادها المعتزلة، وعقدت البيعة بالامامة فيها لامام منهم هي تلك التي قادها امامهم زيد بن علي (٧٩ ـ ١٢٢ هـ ٦٩٨ ـ ٧٤٠ م) بالكوفة ضد حكم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ. .

ولقد تضمن نص البيعة في هذه الثورة أهدافاً استهدف ثوارها تحقيقها، منها:

١ ـ التصدي للظلم وجهاد الظالمين.
٢ ـ والدفاع عن المستضعفين المظلومين.
٣ ـ وتوزيع الأموال بالعدل والمساواة بين المستحقين لها.
٤ ـ واغلاق المعسكرات الحربية ـ (المجامر) ـ اتي حشد الأمويون فيها الرجال بدعوى الفتح والغزو، بينما كان الهدف الحقيقي من اقامتها فتح الجبهات الخارجية التي تصرف الناس عن الوضع المتردي في العاصمة دمشق والولايات والأمصار.
٥ ـ والانتصار لآل البيت، الذين بلغ التنكيل بهم، على يد الأمويين، حد المأساة[2].

---

(١) (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ١٠، ١١.
(٢) (تاريخ الطبري) جـ٧ ص ١٧٢ (أحداث سنة ١٢١ هـ).

والثورة بقيادة يزيد بن الوليد:

وكانت أول ثورة تقوم في الشام ودمشق، معقل بني أمية، وقائدها أمير أموي تمذهب بمذهب المعتزلة هو يزيد بن الوليد (٨٦ ـ ١٢٦ هـ ٧٠٥ ـ ٧٤٤ م) وأغلب ثوارها وجمهورها كانوا من معتزلة الشام.. ولقد أطاحت هذه الثورة بحكم الخليفة الأموي الماجن الوليد بن يزيد (٨٨ ـ ١٢٦ هـ ٧٠٧ ـ ٧٤٤ م).. وكانت ثورة أتت الى الخلافة بخليفة قد عقدت له البيعة من الثوار، وبعد انتصارها أعلن يزيد بن الوليد العودة بمنصب الخلافة الى فلسفة الشورى، وقرر حق الناس في تبديل الخليفة عندما يريدون.. كما أعلن العدل بين الناس، مسلمين وغير مسلمين، «حتى يكون أقصاهم كأدناهم، وحتى تستدر المعيشة بين المسلمين!»[1]..

والثورة بقيادة النفس الزكية:

وكانت هي الأخرى ثورة معتزلية، بقيادتها وقادتها ودعاتها، قادها واحد من فتيان آل البيت الذين تمذهبوا بمذهب المعتزلة، هو محمد بن عبد الله بن الحسن، المعروف بالنفس الزكية (٩٣ ـ ١٤٥ هـ ٧١٢ ـ ٧٦٢ م).. وكان المعتزلة قد دعوا المسلمين الى عقد البيعة ـ عن طريق الشورى ـ له عندما اضطرب أمر الدولة الأموية أواخر عهدها، فبايعه الكثيرون بمكة ـ ولكن الفرع العباسي من بني هاشم عقد مع الجند الخراساني، بقيادة أبي مسلم الخراساني (١٣٧ هـ ٧٥٤ م) صفقة سياسية تحولت بها ثمرة الثورة على الأمويين الى بني العباس، فأزاحوا النفس الزكية، وحكموا حكماً وراثياً هم الآخرون!..

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١١٣. والمسعودي (مروج الذهب) جـ ٢ ص ١٧٦، ١٧٧، ١٧٣.

فكانت ثورة المعتزلة بقيادة النفس الزكية ضد حكم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (٩٥ ـ ١٥٨ هـ ٧١٤ ـ ٧٧٥ م) بالمدينة سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م). وكان الثوار المعتزلة، في ثورتهم هذه، يلبسون اللون الأبيض، على حين كان العباسيون يلبسون اللون الأسود، وكان الشعار المكتوب على رايات الثوار هو: (أحد... أحد).. وهو الشعار الذي كتبه الرسول والصحابة على راياتهم يوم غزوة حنين[١]!..

والثورة بقيادة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن: (٩٧ ـ ١٤٥ هـ ٧١٦ ـ ٧٦٢ م):

وهو أخو النفس الزكية، والثورة التي قادها، في البصرة وما حولها سنة ١٤٥ هـ، هي استمرار لثورة النفس الزكية بالمدينة بعد قمعها بواسطة جيش المنصور العباسي.. وكانت هي ـ الأخرى معتزلية، قيادة وقادة وفي أغلب المقاتلين والدعاة.. وكانت آخر الثورات الكبرى التي انفرد المعتزلة بقيادتها في منطقة المشرق العربي[٢]..

والاسهام في ثورات الزيدية:

وبعد أن غلب الطابع الفلسفي على المعتزلة، فابتعد بقيادتها عن «العامة» ـ وقود الثورات ـ وبعد أن توثقت صلاتهم بالدولة العباسية، وخاصة على عهد المأمون، والمعتصم، والواثق ـ ظلت صلاتهم «بالثورة» قائمة عن طريق اسهام فريق منهم في ثورات «الزيدية»، التي كانت أشبه ما تكون بفرقة منبثقة من تيار الاعتزال ـ (أنظر: الزيدية) ـ.. فأسهموا

(١) (تاريخ الطبري) جـ٧ ص ٥١٧، ٥٢٤ (أحداث سنة ١٤٤ هـ)..

(٢) (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ١٥٤..

وشاركوا في ثورات الزيدية:

* ثورة محمد بن ابراهيم بن طباطبا (١٩٩ هـ ٨١٤ م)..
* وثورة محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين (٢١٩ هـ) في بلاد الطالقان بخراسان.
* وثورة يحيى بن عمر (٢٥٠ هـ) بالكوفة..
* والثورة التي بنت للزيدة دولة في طبرستان سنة ٢٥٠ هـ..
* وثورتهم التي أقامت دولتهم في صنعاء سنة ٢٨٨ هـ[١]..

هكذا أسهم المعتزلة في الحركة الثورية على امتداد أكثر من قرنين.. وكانوا بذلك أمناء وأوفياء لموقفهم الفكري، المنحاز للثورة كطريق لتغيير الظلم والنهي عن المنكر وازالة أئمة الجور والفسق والضعف والفساد.. فهم قد جعلوا لذلك أصلاً من أصولهم الفكرية الخمسة ـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ـ وقالوا عنه: «انه أشرف من جميع أبواب البر والعبادة!»، وأفردوا في آثارهم الفكرية العديد من الصفحات التي تؤصل لمشروعية الثورة، بل لوجوبها، وقالوا ان ذلك هو موقف التيار الاسلامي الذي التزم جانب الحق، على امتداد تاريخ المسلمين. وبعبارة القاضي عبد الجبار: فإنه «لا يحل لمسلم أن يخلي أئمة الضلالة وولاة الجور اذا وجد أعواناً، وغلب على ظنه أنه يتمكن من منعهم من الجور، كما فعل الحسن والحسين، وكما فعل القراء حين أعانوا ابن الأشعث في الخروج على عبد الملك بن مروان، وكما فعل أهل المدينة في وقعة الحرة، وكما فعل أهل مكة مع ابن الزبير حين مات معاوية، وكما فعل عمر بن عبد العزيز، وكما فعل يزيد بن الوليد، فيما أنكروه من المنكر» وحينما ثاروا لاحلال العدل محل الظلم ووضع الشورى موضع الاستبداد بالسلطة والسلطان..

---

(١) ناجي حسن (ثورة زيد بن علي) ص ١٥٦، ١٦٢. طبعة بغداد سنة ١٩٦٦ م..

ورجال دولة

بعد نكبة البرامكة (١٨٨ هـ ٨٠٣ م) بدأ مد التيار الشعوبي في الدولة العباسية في الانحسار. . وبدأت صلات الخلافة تتوثق شيئاً فشيئاً مع التيار « القومي العربي ـ العقلاني »، تيار المعتزلة، ثم بلغت هذه الصلات ذروة توثقها في عهد الخلفاء الثلاثة، الذين تمذهبوا بفكر أهل العدل والتوحيد: المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) والمعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٨ هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٨ ـ ٢٣٣ هـ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م). .

وفي هذه المرحلة من مراحل علاقة المعتـزلة بـالسلطة والدولـة ظهر في محيطهم تياران:

١ ـ تيار المعتزلة البغداديين:

وهم مدرسة في اطار المعتزلة، التزمت، كغيـرها بـالأصول الخمسـة، ولكنهم في السياسة ظلوا على معارضتهم للعباسيين الذين استأثروابالسلطة من دون العلويين، بل ومارسوا ضدهم القمع والاضطهاد. . وتعبيـراً عن هذا الولاء العلوي كان المعتزلة البغداديـون يفضلون علي بن أبي طـالب ـ

وهم يقومون التاريخ ـ على غيره من الخلفاء الراشدين. . ولقد ظل اسهام المعتزلة في الثورة ضد الدولة العباسية عن طريق هذا التيار من تياراتها، وهو التيار الذي اقترب من « الزيدية »، فثار معها، وظل يطبع عقائدها بالأصول الخمسة للاعتزال. . ومؤسس هذه المدرسة هو بشر بن المعتمر (المتوفى سنة ٢١٠ هـ ٨٢٥ م). .

٢ ـ تيار المعتزلة البصريين:

الذين ظلوا على تقويم قدماء المعتزلة ـ الذين كان مركزهم بالبصرة عند النشأة ـ تقويمهم لأحداث التاريخ الاسلامي في عصر صدر الاسلام، وهو التقويم الذي وضع علي بن أبي طالب بعد أبي بكر وعمر وعثمان في الفضل، كما هو الحال في الترتيب الزمني لتولي الخلافة. . وهذا التيار، الذي لم يقترب من الشيعة الزيدية ومن العلويين اقتراب البغداديين، هو الذي توثقت صلاته بالدولة، فأثر فيها، وأضفى على مواقفها من فكره، وأسهم في صنع الانجازات الحضارية التي سطرت صفحة العصر الذهبي لحضارتنا وتراثنا في ذلك التاريخ. .

ولقد بلغت علاقة المعتزلة بجهاز الدولة على عهود: المأمون، والمعتصم، والواثق الى الحد الذي أصبح فيه قائدهم: أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد (١٦٠ ـ ٢٤٠ هـ ٧٧٧ ـ ٨٥٤ م) أكثر من وزير. . أصبح « مشيراً » يشارك الخليفة التفكير واتخاذ القرار، والغى في تلك الفترة منصب الوزير. . وفي وصية المأمون للمعتصم يقول له: « . . . **وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك. فانه موضع ذلك، ولا تتخذن بعدي وزيراً. .** »[١]. .

(١) د. ألبير نصري نادر (فلسفة المعتزلة) جـ ١ ص ٢٩. طبعة الاسكندرية.

ولقد انتشر رجال المعتزلة في جهاز الدولة.. فتولوا القضاء والدواوين وغيرهما من الولايات.. واشتهر منهم، كرجال دولة كثيرون، مثل:

* هشام بن عمرو الفوطي، الشيباني (٢١٨ هـ ٨٣٣ م)..
* ويوسف بن عبد الله بن اسحاق الشحام (١٥٣ - ٢٣٣ هـ ٧٦٧ - ٨٤٧ م)..
* وأبو معن ثمامة بن أشرس النميري (٢١٣ هـ ٨٢٨ م)..

وغيرهم كثيرون[1]...

(١) (باب ذكر المعتزلة) ص ٣٥، ٤٠. و(رسائل الجاحظ) جـ ٢ ص ٢٦٦.

المحنة

بموت الخلفة العباسي الواثق (٢٣٣ هـ ٨٤٧ م) انتهى العصر الذهبي للمعتزلة، بل العصر الذهبي للدولة العباسية، وبدأت النذر بمرحلة التراجع - (أنظر: مرحلة الجمود والتوقف والتراجع للحضارة العربية) -.. ففي عهد المتوكل العباسي (٢٣٣ - ٢٤٧ هـ ٨٤٧ - ٨٦١ م) حدث الانقلاب ضد المعتزلة ونزعتهم العقلانية، فاقتلعوا من مناصبهم في الدولة، وابعدوا عن مراكز التأثير الفكري، وزج بالكثير من أعلامهم في السجون، وأبيدت آثارهم الفكرية، الا ما ندر منها، فتقلص سلطان العقل العربي الاسلامي على الحياة الفكرية والعامة، وعزلت معاييره فلم تعد الحاكمة في المجتمع، بعد أن كانت الأساس الذي قام عليه البناء الحضاري فيما قبل ذلك التاريخ..

فنفر من أهل الحديث، الذين يقدمون: الاسناد والنقل على العقل، خرجوا من السجون، فتولوا أزمّة الدولة، ووضع المعتزلة بدلاً منهم في السجون.. وعلى حين ابتعدت الدولة عن المعتزلة فلقد زاد اقترابهم من

التيار العلوي المعارض لها، وزاد، مع الاضطهاد، اسهامهم في ثورات الزيديين! . .

وشاعر الخليفة المتوكل: علي بن الجهم يعبر عن عدائه وعداء حزبه للمعتزلة ـ الذين يسميهم أحياناً: « الواثقية »، نسبة للخليفة الواثق! ـ وعدائه لحلفائهم من الشيعة العلوية، فيقول:

تضافرت الروافض والنصارى   وأهل الإعتزال على هجائي
وعابوني، وما ذنبي اليهم   سوى علمي بأولاد الزناء!
أنا المتوكلي هوى ورأياً   وما « بالواثقية » من خفاء

وعندما نفى المتوكل مشير الدولة وزعيم المعتزلة أحمد بن أبي دؤاد، هجاه علي بن الجهم بقوله:

يا أحمد بن أبي دؤاد دعوة   بعثت اليك جنادلاً وحديداً
ما هذه البدع التي سميتها   بالجهل منك العدل والتوحيدا
أفسدت أمر الدين حين وليته   ورميته بأبي الوليد وليداً[1]

فإذا مرض ابن أبي دؤا د هجاه علي بن الجهم، شاعر الخليفة المتوكل، وتحدث عن انتصار «أصحاب الحديث» ـ «النصوصيين» ـ على المعتزلة، فقال مخاطباً ابن أبي دؤاد:

لم يبق منك سوى خيالك لامعاً   فوق الفراش ممهداً بوساد
فرحت بمصرعك البرية كلها   من كان منهم موقناً بمعاد
كم مجلس لله قد عطلته   كي لا يحدث فيه بالاسناد
ولكم مصابيح لنا اطفأتها   حتى يزول عن الطريق الهادي
ولكم كريمة معشر أرملتها   ومحدث أوثقت في الأقياد

---

(١) أبو الوليد: هو ابن أحمد بن أبي دؤاد، محمد، الذي ولي الأمر بعد أبيه.

ان الأسارى في السجون تفرجوا لما أتتك مواكب العواد[1]!

ثم استمر اضطهاد الدولة للمعتزلة، وتصاعدت محنتها لهم، حتى لقد أسقطت شهادتهم أمام القضاء، أي جردتهم من «حقوقهم المدنية»، بتعبيرنا الحديث؟!.. بل وحرم عليهم - مع العلويين - «تقبل الضياع»، أي أن يكونوا «ملتزمين» في استغلال الأرض الزراعية، وركوب الخيل، ومغادرة المدن التي يقيمون فيها؟!.. الخ.. الخ[2]..

وامتد هذا الاضطهاد فشمل عدداً من الدويلات التي قامت في أطراف الدولة، من مثل الدولة الغزنوية التي جمع قائدها محمود الغزنوي (٣٩٠ - ٤٨١ هـ ٩٩٩ - ١٠٣٠ م) العديد من أئمة المعتزلة ووضعهم في سجن أعده لهم في «عز دار»، بشمال أذربيجان، واستمر حبسهم حتى ماتوا فيه![3].

وأخيراً.. توجت الدولة العباسية اضطهادها هذا للمعتزلة، وكرسته، وجعلته قانوناً وفكراً رسمياً للدولة بذلك الكتاب الذي أشرف على وضعه الخليفة القادر (٣٨١ - ٤٣٣ هـ ٩٩١ - ١٠٣١ م) وسماه (الاعتقاد القادري)، وجعل علماء السنة وأصحاب الحديث يوقعون عليه، ثم أمر به فعمم في الأقاليم، وقرىء في الدواوين، وتلي على المنابر. ولقد أدخل هذا الكتاب - الذي صدر ليحرم فكر المعتزلة ويجرمه - في الاسلام «كهنوتاً» اعتقادياً مستعاراً من قرارات المجامع الكنسية، غريباً عن روح الاسلام وطبيعته.. وفي هذا الاعتقاد القادري صدرت أوامر الخليفة:

---

(١) الأصفهاني (الأغاني) جـ ١ ص ٣٦٧ - ٣٦٧٢ - ٣٦٨١، ٣٦٨٢، ٣٦٩٣. طبعة دار الشعب. القاهرة.

(٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢، ٣٠٣، والمقريزي ؛ (الخطط) جـ ٣ ص ٢٧١ طبعة دار التحرير. القاهرة.

(٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٦٧..

١ ـ بمنع تدريس علم الكلام والمناظرة في مسائله، خاصة الاعتزال ومقالات أهله.. وأنذر المخالفين بالعقوبة والنكال، نفياً وسجناً وقتلاً!..

٢ ـ ويلعن المعتزلة على منابر المساجد، حتى يصير ذلك سنة من سنن الاسلام!

٣ ـ وبتحريم قول المعتزلة في «التوحيد».. حيث يثبت (الاعتقاد القادري) لله الصفات التي ينفيها عنه تنزيه المعتزلة وتوحيدهم.. كما يثبت القول بقدم القرآن..

٤ ـ وبتحريم قول المعتزلة في «العدل» والاختيار.. حيث يثبت (الاعتقاد القادري) أن الخلق لا قدرة لهم، بل «كلهم عاجزون»..!

٥ ـ وبتحريم قول المعتزلة في «المنزلة بين المنزلتين».. حيث قرر هذا الاعتقاد مذهب المرجئة في هذا الموضوع..

ولقد صدر هذا «المرسوم» الفكري، باعتباره «اعتقاد المسلمين، ومن خالفه فقد فسق وكفر!»[1] فجعلت الدولة به من اضطهاد المعتزلة ونفيهم من المجتمع الرسمي ودوائر الفكر والتوجيه والتأثير وابادة تراثهم، جعلت من ذلك قانوناً وعقيدة دينية، على الجميع أن يراعوها ويضعوها موضع التطبيق.. فكانت تلك قمة المحنة الفكرية والسياسية التي حرمت الحضارة العربية الاسلامية من الثراء الفكري الذي تمثل في الفكر العقلاني الذي مثله المعتزلة..

لقد بدأ الاضطهاد لأصحاب هذا التيار «القومي العربي ـ العقلاني» في عصر المتوكل، عندما زاد نفوذ العنصر غير العربي ـ الجند المماليك ـ على

---

(١) آدم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ ١ ص ٣٨١ ـ ٣٨٣. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧.

منصب الخليفة وجهاز دولته، فأصبحت السلطة الفعلية لعنصر غريب عن المشاعر القومية لهذه الأمة وعن القسمة العقلانية التي امتازت بها حضارتها.. وتصاعد هذا الاضطهاد بتصاعد نفوذ هذا العنصر اللاعربي في جهاز الدولة وقيادتها.. ومن قبل كان اضطهاد المعتزلة مقروناً بعلو شأن الشعوبية والشعوبيين في بغداد قبل نكبة البرامكة سنة ١٨٨ هـ (٨٠٣ م).. فهو اذن قانون عندما تكون السلطة لمن يمثلون الذات القومية - بمضمونها المستنير - يكون التوجيه لمن يمثلون فكرها القومي ومن يجسدون نزعتها العقلانية الأصيلة.. وعندما يصبح الأمر بيد الغرباء، حضارياً وقومياً، يتراجع أصحاب التيار القومي عن مراكز التوجيه، وتتملق السلطة جماهير العامة بتسويد الفكر المحافظ المعادي للعقل، فتصيب المحنة أصحاب النزعة العقلية الذين يؤسسون الدين والدنيا على ما يثمر العقل من أدلة وبراهين... نعم.. إنه قانون؟!..

صحوة ثانية

ولكن هذا الاضطهاد الذي أصاب المعتزلة، منذ عصر المتوكل العباسي، لم يفلح في اجتثاث فكرهم العقلاني من أرض الحضارة العربية الاسلامية، فعاش نفر من أعلامهم يفكرون ويبشرون ويكتبون دون أن يعلنوا على الملأ مذهبهم في الاعتزال، وكانوا اذا تحدثوا عن أسلافهم سموهم: «علماء الكلام» أو «متكلمي البصرة»! وهكذا، كما صنع أبو الحسن الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٧٤ - ١٠٥٨ م) وأمثاله.. كما أن التناقضات الفكرية والسياسية التي قامت بين خلافة بغداد وبين بعض الدول الاسلامية التي قامت وقوي نفوذها على حساب نفوذ الخلافة العباسية قد أتاح للمعتزلة قدراً من الحرية - كما حدث في ظل الدولة البويهية (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) - التي جعلتها مذهبيتها «الزيدية» تفسح المجال لمفكري المعتزلة الذين تتفق معهم الزيدية في الأصول - الأمر الذي مكن فكر المعتزلة من صحوة ازدهر فيها انتاج أعلامهم وعطاؤهم الفلسفي والسياسي، وهي الصحوة التي عد قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (٤١٥ هـ ١٠٢٤ م) علماً عليها.. فكان أن بقي لنا تراث المعتزلة المتأخر، بعد أن باد تراثهم القديم، فأصبح بالامكان أن ندرس المعتزلة

ونقوم فكرهم من خلال تراثهم هم، لا من خلال ما كتبه عنهم الخصوم والأعداء.

ومع بقاء هذا التراث الجديد للمعتزلة حافظاً لفكرهم وأصولهم في تراثنا.. استمرت أصولهم الفكرية قائمة ومؤثرة في الواقع العربي الاسلامي من خلال وجود «الزيدية»، التي تتفق معهم في الأصول، ولا تختلف واياهم الا في بعض المسائل التي تتعلق بقضية الامامة... كما بقيت أصول للمعتزلة تعيش في الواقع العربي والاسلامي حتى الآن من خلال تبني الشيعة الامامية لها أو اقترابهم من رأي المعتزلة فيها.. كما طبعت عقلانيتهم فلسفة العديد من فلاسفة العرب المسلمين، الذين لم تكن عقلانيتهم مجرد تقليد لعقلانية فلاسفة اليونان.. وأيضاً، ففي فكر بقايا الخوارج، الذين استمر مذهبهم، نجد العديد من الأصول والقضايا التي اتفقوا فيها مع المعتزلة، أهل العدل والتوحيد..

لقد انقضت المعتزلة كفرقة.. ولكنها استمرت نزعة عقلية، وفكراً قومياً، وأصولاً فكرية، من خلال فرق أخرى أثرت فيها، ومن خلال البصمات التي طبعتها على المجرى العام، الخالد والمتدفق والمتطور، لفكر العرب والمسلمين.

* * *

تلك هي أهم الملامح الخاصة التي تميزت بها فرقة المعتزلة..

* فالموالي منهم.. كانوا عرباً بالحضارة والولاء، ناصبوا الشعوبية العداء، وقدموا بواكير الفكر القومي الذي يؤلف ويبلور الشخصية العربية، على أسس غير عرقية، وانما بمفهوم حضاري وانساني ومتقدم..

* والرواة منهم.. كانوا أولى مدارس البحث التاريخي في تراثنا العربي الاسلامي..

* والفلسفة عندهم. . كانت فلسفة الهية، تدينت فيها الفلسفة، وتفلسف بها الدين. . وقدمت أولى محاولات التعايش والتآخي والتوفيق بين الحكمة والشريعة في تراثنا. .

* ومقام العقل عندهم. . كان عالياً. . وصفات « الأرستقراطية الفكرية » وسمات « العلماء » كانت واضحة في أوساطهم كل الوضوح... كما أن ارتباط مواطنهم، وأسماء عدد من أعلامهم، بالمواطن التجارية، وبألقاب الحرف والصناعات يؤكد أن هذا التيار « العقلاني ـ القومي » قد ارتبط في النشأة والانتشار بالطبقة التجارية وفئات الحرف والصناع، الذين كونوا البيئة الأكثر استنارة والأكثر قابلية للعقل والعقلانية ـ على عكس البدو والفلاحين ـ في تلك المجتمعات. .

وهكذا كان المعتزلة: كوكبة من أهل الفكر والنظر والثورة، اتخذوا من الفلسفة والفكر والرقي في المعرفة بديلاً عن الأحساب والأنساب، فتحقق في فرقتهم تعايش العرب والموالي دون تفاخر أو عصبية أو تنافر، وكان الفكر « العقلاني ـ القومي »، هو السلم الذي ارتقوا عليه الى مستوى أصبح دونه مستوى « الأشراف » الذين يستند « شرفهم » الى الأحساب والأنساب. . وهو الأساس المتين الذي قام عليه صرح العصر الذهبي لحضارتنا العربية الاسلامية.

المصادر

آدم متز: (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) ترجمة: دكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م.
ابن أبي الحديد: (شرح نهج البلاغة) تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.
ابن الأثير الجزري: (اللباب في تهذيب الأنساب) طبعة دار صادر - بيروت.
ابن جني (أبو الفتح عثمان): (الخصائص) طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م.
ابن حزم: (الفصل في الملل والنحل) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
ابن خلدون: (المقدمة) طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.
ابن سعد: (الطبقات الكبرى). طبعة دار التحرير. القاهرة.
ابن قتيبة: (المعارف) تحقيق: د. ثروت عكاشة. طبعة القاهرة سنة١٩٦٠ م.

(عيون الأخبار) طبعة دار الكتب المصرية.

(الامامة والسياسة) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

ابن المرتضى: (باب ذكر المعتزلة - من كتاب المنية والأمل) تحقيق: توما أرنولد. طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ.

الأشعري (أبو الحسن): (مقالات الاسلاميين) تحقيق: هـ. ريتر. طبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م.
الأصفهاني (أبو الفرج) (الأغاني) تحقيق: ابراهيم الأبياري. طبعة دار الشعب. القاهرة.
البير نصري نادر (دكتور): (فلسفة المعتزلة) طبعة اسكندرية.
البغدادي (عبد القاهر): (الفرق بين الفرق) طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.
التهانوي: (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م.
الجاحظ: (البيان والتبيين) طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م.
(الرسائل) تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة ٦٤ - ١٩٦٥ م.
(الحيوان) تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة، الثانية.
جب (هاملتون): (دراسات في حضارة الاسلام) ترجمة: د. احسان عباس، د. محمد نجم، د. محمود زايد. طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ م.
الجرجاني: (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.
جمال الدين القاسمي: (تاريخ الجهمية والمعتزلة) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
جيوم (الفريد): (الفلسفة وعلم الكلام) ترجمة جرجيس فتح الله. طبعة بيروت - (ضمن مجموعة: تراث الاسلام) - سنة ١٩٧٢ م.
الحسن البصري (وآخرين): (رسائل العدل والتوحيد) جـ ١، ٢: دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م.
الخوارزمي: (مفاتيح العلوم) طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ.
الخياط: (الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد). تحقيق: نيبرج. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م.
الرازي (الفخر): (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

الشهرستاني: (الملل والنحل) ط القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
صبحي (أحمد) (دكتور) نظرية الإمامة عند الشيعة الإثني عشرية) ط القاهرة سنة ١٩٦٩م.
الطبري (محمد بن جرير): (التاريخ) تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة دار المعارف. القاهرة.
طه حسين (دكتور): (الفتنة الكبرى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩، سنة ١٩٧٠ م.
الطوسي (نصير الدين): (تلخيص الشافي) تحقيق: السيد حسين صالح بحر العلوم. طبعة النجف ١٣٨٣، ١٣٨٤ هـ.
عبد الجبار بن أحمد (قاضي القضاة): (فصل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.
(شرح الأصول الخمسة). تحقيق: د. عبد الكريم عثمان. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.
(تثبيت دلائل النبوة) تحقيق: د. عبد الكريم عثمان. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.
(المغني في أبواب التوحيد والعدل). طبعة القاهرة.
(المجموع المحيط بالتكليف) مخطوط مصور بدار الكتب المصرية.
عبد الرحن بدوي (دكتور): (مذاهب الاسلاميين) طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م.
علي بن أبي طالب (الامام): (نهج البلاغة) طبعة دار الشعب. القاهرة.
علي فهمي خشيم: (الجبائيان أبو علي وأبو هاشم) طبعة ليبيا سنة ١٩٦٨ م.
عماره (محمد) (دكتور): (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.
(الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م

(المعتزلة والثورة) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م.
فان فلوتن: (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية) ترجمة: د. حسن ابراهيم حسن، محمد زكي ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.
الفراء (أبو يعلى): (الأحكام السلطانية). طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.
(كتاب الامامة) طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م - ضمن مجموعة (نصوص الفكر السياسي الاسلامي: الامامة عند السنة).
فلهوزن (يوليوس): (الخوارج والشيعة) ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ (تاريخ الدولة العربية) ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريده. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
القلقشندي: (صبح الأعشى) طبعة دار الكتب المصرية.

الكليني: (الأصول من الكافي) تحقيق: على أكبر العفاري. طبعة طهران سنة ١٣٨٨ هـ.
الماوردي (أبو الحسن): (أدب القاضي) تحقيق: محيي هلال السرجان. طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م.

(أدب الدنيا والدين) تحقيق: مصطفى السقا. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م.
المبرد «أبو العباس»: (الكامل - باب الخوارج) طبعة دمشق سنة ١٩٧٢ م.
مدكور (ابراهيم) (دكتور): (في الفلسفة الاسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
المرتضى (الشريف): (أمالي المرتضى): تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م.

المسعودي : (مروج الذهب) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميـد. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.
مسلم (الامام): (صحيح مسلم) ـ بشرح النووي ـ طبعة القاهـرة (محمود توفيق).
المقريزي (تقي الدين): (الخطط). طبعة دار التحزير ـ القاهرة.
ناجي حسن: (ثورة زيد بن علي) طبعة بغداد سنة ١٩٦٦ م.
نصر بن مزاحم المنقري: (وقعة صفين) تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ.
نعيم زكي فهمي (دكتور): (طرق التجـارة الدوليـة ومحطاتهـا بين الشـرق والغرب) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م.
نلينو: (بحوث في المعتزلة) ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة ـ ضمن مجموعة (التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية) ـ سنة ١٩٦٥ م.
النوبختي: (فرق الشيعة): تحقيق هـ. ريتر. طبعة استانبول سنة ١٩٣١ م.
ياقوت الحموي: (معجم البلدان).

٢ ـ الخوارج

قبل سنة ٣٧ هـ (٦٥٧ م) ـ العام الذي شهد نشأة فرقة الخوارج ـ كانت الصراعات والانقسامات التي طرأت على الجماعة الاسلامية ذات طابع سياسي، وقفت خلفها وأثمرتها عوامل اجتماعية وقبلية واقليمية، ووقفت عند حدود الطابع السياسي دون أن تضفي على مبادئها وأهدافها ثياباً أو طابعاً من عقائد الاسلام كدين.. فلم يزعم الذين اختلفوا على خلافة أبي بكر، ولا الذين اصطرعوا حول تصرفات عثمان بن عفان أن واحداً من فرقاء هذا الصراع والخلاف قد مرق عن الدين، أو أن الاسلام، كدين، قد أصبح وقفاً على موقف فريق دون فريق.. كان خلافاً سياسياً أو قبلياً وصراعاً اجتماعياً أو اقليمياً قام ويقوم بين أبناء الدين الواحد وأهل القبلة الواحدة، دون أن يزعم طرف من أطرافه أن له صبغة من الدين..

أما الخوارج، فلقد كان انشقاقهم، على عهد خلافة علي بن أبي طالب، سنة ٣٧ هـ، وابان صراعه ضد معاوية بن أبي سفيان وأنصاره، نقطة تحول في الماهية والطبيعة التي أضفيت على الصراعات التي حفلت بها حياة العرب المسلمين.. فهم لم يقفوا بخلافهم مع خصومهم عند الحدود السياسية، بل أضفوا عليه طابعاً من الدين، وذلك عندما زعموا أنهم هم المؤمنون، وأن من عداهم قد مرق من الدين مروق السهم من قوسه!.. وزادت الطامة وعمت البلية عندماستخدم خصومهم ذات السلاح،

فأصبحت سائر فرق الاسلام، تقريباً، تضفي على مبادئها السياسية وآرائها الفكرية والاجتماعية صبغة من الدين وعقـائده، انسيـاقاً مـع تيار سلطان العقيدة الدينية الجارف، حيناً، وتملقاً للعامة واستجلاباً لتأييدهـا في أغلب الأحايين. . فانطبعت خلافات الساحة الاسـلامية بـالطابـع الديني عنـدما انتقل الجميع بما هو سياسي الى ساحة ما هو دين! . . وهذا الغلو والانحراف الذي نشأ مع نشأة فـرقة الخـوارج لا زال العقل العـربي المسلم يعاني منـه ويجاهد ضده حتى الآن! . .

ولعـل قسوة الصـراع الذي انشق الخـوارج أثناءه، ووضـوح مخـاطـر خصومهم ـ وخاصة بني أمية ودولتهم ـ على قيم الدين ومثله العليا، وأيضاً نشأة فرقة الخوارج الأولى على يد كوكبة من القراء ـ وهـم فقهاء ذلك العصر ونساكه الذين اقتربوا من مثل الدين وقيمه بقدر ما ابتعدوا عن عرض الدنيا ـ لعـل في ذلك أسبـاباً أسهمت في خلط مـا هو سيـاسة بمـا هو دين لـدى أصحاب هذه الفرقة المبكرة النشأة من فرق الاسلام.

النشأة:

كانت الطلائع الأولى التي كونت فرقة الخوارج مكونة، في أغلبها، من القراء. . وكان لهؤلاء القراء دور ملحوظ في أحداث الثورة التي شبت ضد عثمان بن عفان، بسبب الأحداث التي وقعت منه ومن أعوانه، وخاصة بني قرابته الأمويين، في السنوات الست الأخيرة من حكمه. . وكأن تشخيص الثوار الذي برروا به «الخروج» عن طاعة الخليفة هو أنه قد ضعف عن أن يحكم كما كان يحكم أبو بكر وعمر وكما كان يحكم هو في الشـطر الأول من خـلافته. . والضعف. . أو الفسق. . أو الجـور. . أسبـاب ثلاثة استقـر الفكـر السياسي الاسـلامي الثوري عـلى اعتمادهـا أسبابـاً تبـرر الثـورة و «الخروج» على من يتصف بها أو يقترفها ويقارفها من الحكام. .

وبعد مقتل عثمان كان هؤلاء القراء من أكثر أنصار علي بن أبي طالب ـ الخليفة الجديد ـ حماساً لملاقاة خصومه واستئصال شأفة القوى التي تريد مناوأة الخليفة الذي اختاره الثوار وبايعه جمهور المسلمين. . سواء أكان هؤلاء الخصوم هم: طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين ـ (أصحاب موقعة الجمل) ـ أم كانوا بني أمية وأنصارهم من أشراف قريش وجند أهل الشام. .

وأثناء أحداث الصراع الذي دار بين علي وبين معاوية على أرض « صفين » لم يكن يخالج هؤلاء القراء أي شك في أنهم على الحق. . فعلي هو أمير المؤمنين، الذي بايعه الجمهور، وهو الذي نهض فقرر ازالة الأسباب التي ثار الناس لها على عثمان، ان في السياسة أو الادارة أو الاقتصاد. . ومن ثم فإن معاوية وأصحابه لا يمكن الا أن يكونوا « بغاة » « بغوا » على غيرهم من المؤمنين، و « حكم » القرآن في هؤلاء « البغاة » قد سلف وتقرر: ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، ان الله يحب المقسطين﴾ ـ « الحجرات: ٩ ».

ولكن هذا الوضوح الفكري لم يكن العامل الحاسم الذي يحرك خطوات قوم آخرين ويسل سيوفهم لقتال البغاة. . لقد كان حاسماً لدى هؤلاء القراء، ولكنه لم يكن كذلك عن أنصار علي من أشراف أهل العراق، أولئك الذين مالوا مع الدنيا الى صفوف معاوية، وعبرت عن ازدواجية موقفهم تلك العبارة الشهيرة الساخرة التي أنبأتنا بأنهم كانوا يصلون خلف علي ويأكلون على مائدة معاوية؟! لأن الصلاة خلف علي أسلم، والطعام على مائدة معاوية أدسم!

ولما تخاذل هؤلاء الأشراف عن القتال أدرك علي، بعين السياسي

والمحارب، تناقص فرص النصر أمامه. . ولم يكن القراء الفقهاء ـ كما هي العادة غالباً ـ من ذوي النظر السياسي البعيد، الذي يسبر الغور، بل لقد قلل ايمانهم الشديد بالمثل وحماسهم الجارف للقيم وانخراطهم الأشد في النسك من ملكة السياسة وحذق الساسة. . فكان أن رفضوا ما قبل به علي من «التحكيم» بينه وبين معاوية في النزاع، لأن علياً كان يرى ضرورات السياسة والحرب، أما هم فلم يروا سوى أن القرآن ـ كتاب الله ـ قد « حكم » في أمر هؤلاء « البغاة »، ومن ثم فلا يجوز « تحكيم » الرجال فيما « حكم » فيه الله! . . فصاحوا في جنبات معسكر علي « بصفين »: لا حكم الا لله. . فعرفوا (بالمحكمة) منذ رفضهم لقرار « التحكيم » في شهر صفر سنة ٣٧ هـ.

وبعد أن اجتمع الحكمان ـ أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص ـ في رمضان من نفس العام، وأسفر التحكيم ـ كما هو مشهور ـ عن اضعاف « شرعية » علي وتعزيز «بغي» معاوية، ازداد المحكمة يقيناً بسلامة موقفهم، وبخطأ موقف علي، فذهبوا اليه يطلبون:

* رفض الاعتراف بالتحكيم ونتائجه.
* والنهوض لقتال معاوية ومن معه.

وقالوا له: « اتق الله، فانك قد أعطيت العهد وأخذته منا لنفنين أنفسنا، أو لنفنين عدونا، أو يفيء الى أمر الله. وانا نراك قد ركنت الى أمر فيه الفرقة والمعصية لله والذل في الدنيا، فانهض بنا الى عدونا فلنحاكمه الى الله بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين، لا حكومة الناس! ».

وكان من هؤلاء (المحكمة) نفر قد سبق له القبول بمبدأ « التحكيم » يوم كان علي يجادل فيه ويتخوف من نتائجه ويجتهد لدفعه، فلما عاتبهم على

سابق موقفهم لم يجدوا غضاضة في نقد موقفهم السابق، واعلان توبتهم من ذنبهم ذاك، وطلبوا الى علي أن يصنع صنيعهم قائلين له: « انه قد كانت منا خطيئة وزلة حين رضينا بالحكمين، وقد تبنا الى ربنا ورجعنا عن ذلك، فارجع كما رجعنا، والا فنحن منك براء! ».

ولكن علي بن أبي طالب: رجل الدولة.. وعلي بن أبي طالب: الرجل الرباني، الذي كان يمثل بتقواه ضمير الجماعة المؤمنة ومثل الدين الجديد.. لم يـر لنفسه سبيلاً كي ينقض أمراً أبرمه، فرفض الرجوع عن « عهد » التحكيم، ومن ثم رفض الاقرار بأنه قد أذنب.. وقال لهم: « ويحكم! أبعد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟!.. أبعد أن كتبناه ننقضه؟! ان هذا لا يحل!.. » وزكى الأشراف موقفه، فقالوا له، بلسان محرز بن جريش بن ضليع: « يا أمير المؤمنين، وما الى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل، فوالله اني لأخاف أن يورثنا هذا الرجوع ذلاً! ».

وعند ذلك استحكم الشقاق في معسكر علي، ووضح الاستقطاب عندما أعلنت (المحكمة) علياً انشقاقها عليه وعلى معاوية، معاً، وقالوا له، بلسان الخريت بن راشد الناجي: « لا والله لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، واني غداً لمفارقك.. لأنك « حكمت » في الكتاب، وضعفت عن الحق اذ جد الجد، وركنت الى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد، وعليهم ناقم، ولكم جميعاً مباين! »..

وبعد أن كان المسلمون فريقين: أهل العراق يقودهم علي، وأهل الشام يقودهم معاوية.. ظهر الفريق الثالث، وهم (المحكمة) الذين اختاروا لهم أميراً من « الأزد » ـ وليس من قريش ـ هو الصحابي الصالح عبد الله بن وهب الراسبي (٣٨ هـ ٦٥٨ م).. فكانت تلك هي النشأة الأولى لفرقة الخوارج، أولى الفرق في حياة العرب المسلمين.

التسمية:

كثيراً ما يسمى الخوارج أنفسهم: « المؤمنون »، أو: « جماعة المؤمنين »، أو: « الجماعة المؤمنة » . . أما الأسماء الأخرى التي غلبت عليهم واشتهروا بها، فإن أغلبها قد أطلقها عليهم خصومهم، فلما أن شاعت وعرفوا بها، قبلوها وقدموا لها التفسيرات والتخريجات التي تجعلها أدخل في باب المدح منها في باب القدح! . .

فخصومهم سموهم: (الخوارج) لخروجهم - في رأيهم - على أئمة الحق والعدل. . فلما شاع هذا الاسم قبلوه، وقالوا أن خروجهم انما هو على أئمة الجور والفسق والضعف، ومن ثم فانه هو الموقف الاسلامي الوحيد الذي يرضاه الاسلام. . وقالوا: ان الخروج عن الدين مروق، يسمى أصحابه: المارقة والمارقين. . أما الخروج الى الدين فإن أصحابه هم الذين يسمون بالخوارج والخارجة، لأن خروجهم هو الى الجهاد في سبيل الله، والله، سبحانه، يقول: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ - « التوبة: ٤٦ ».

ولقد غدا هذا الاسم - (الخوارج) - أكثر الأسماء شيوعاً على هذه الفرقة في تراث العرب المسلمين. .

* فقطري بن الفجاءة المازني (٧٨ هـ ٦٩٧ م) - وهو أحد أئمتهم - يكتب الى أبي خالد القناني - وهو منهم - يلومه على « قعوده » عن «الخروج» فيقول:

أبا خالد انفر فلست بخالد وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجي على الهدى وأنت مقيم بين لص وجاحد؟!

* وشاعرهم عيسى بن فاتك يتحدث عن انتصار أبي بلال مرداس بن

حدير، الربعي الحنظلي (٦١ هـ - ٦٨٠ م) بأربعين من رجالهم على جيش أموي تعداده ألفان، بموقعة « آسك »، فيقول:

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك أربعونا؟!
كذبتم، ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا!

* وعندما قتل الأمويون أبا بلال هذا وجماعته وهم يصلون، قال شاعر الخوارج عمران بن حطان:

لقد زاد الحياة إلي بغضاً وحباً في الخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرى العوالي
ولو أني علمت بأن حتفي كحتف أبي بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فاني لها، والله رب البيت، قالي

* ولقد أطلق عليهم خصومهم أسماء بعض المواقع التي واقعوهم فيها.. فقالوا مثلاً: أهل النهروان.. أو: الحروريين.. وقال الشاعر الأموي القعقاع بن عطية الباهلي يتحدث عن قتاله اياهم:

أقاتلهم وليس علي بعث نشاطاً ليس هذا بالنشاط
أكر على الحروريين مهري لأحملهم على وضح الصراط

* كما سموا هم أنفسهم: « الشراة »، لأنهم باعوا أرواحهم في الدنيا، واشتروا النعيم في الآخرة.. والواحد من هذا الجمع: « شاري ».. واستشهدوا بقول الله سبحانه: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ « النساء « ٧٤ ».. وقوله: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ - « البقرة: ٢٠٧ » - وقوله: ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ - « التوبة: ١١١ »..

وقال شاعرهم: الوليد بن طريف:

أنا الوليد بن طريف الشاري جوركم أخرجني من داري!

وقال عمران بن حطان:

اني أدين بما دان الشراة به يوم النخيلة عند الجوسق الخرب

ووصف شاعر من مراد زحفهم على عدوهم، فقال:

الليل ليل فيه ويل ويل وسال بالقوم الشراة السيل
ان جاز للأعداء فينا قول!

أما خصمهم: الشاعر صالح بن مخراق فيقول:

اني لمذك للشراة نارها ومانع ممن أتاها دارها
وغاسل بالطعن عني عارها!

ولم ينس خصومهم أن يجتهدوا كي يحرموهم ما في هذا الاسم من شرف وميزة، فقالوا ان «الشاري» هنا يعني شديد الالحاح.. فهو مشتق من شري الرجل اذا ألحّ، وهم شديدو الالحاح على ما يطلبون!.. أو معناه: الذي يستشري بالشرا!.. فلقد كانت التسميات والأسماء أسلحة في الصراع، وحتى بعد أن استقرت وغلبت على أصحابها ظلت التفسيرات والتخريجات تبحث عن السبل التي تجعلها فاعلة ومؤثرة في هذاالصراع!..

المبادىء العامة:

تبلورت مقالات الخوارج وتحددت الأصول العامة لفرقتهم بعد مرحلة غير قصيرة من النشأة، في مجرى الأحداث والصراع ضد الخصوم، وأيضاً في مجرى الصراعات الداخلية التي قسمت الفرقة الرئيسية الى عدة فروع، فوضح من خلال كل ذلك أن هناك عدداً من الأصول التي اجتمع عليها وأجمع عامة الخوارج.. مثل:

١ ـ في نظام الحكم والسلطة العليا للدولة ـ (الامامة) ـ يقررون صلاح المسلم الذي تتوافر فيه شروط الامامة لتولي هذا المنصب، بصرف النظر عن نسبه وجنسه ولونه. . وهم يتميزون بذلك عن كثير من فرق الاسلام وتياراته السياسية، التي اشترطت النسب القرشي أو العربي لمن يتولى منصب الامام. . والخوارج، هنا، هم الأقرب الى روح الاسلام. . بل ان منهم من أجاز تولي المرأة لمنصب الامامة العظمى، ووضع هذا الرأي في التطبيق. .

بل اننا نلحظ ميل الخوارج عن قريش في الوقت الذي احتكر فيه القرشيون ـ هاشميون وأمويون ـ لعبة الصراع على السلطة، فمن بين الأئمة الخوارج الذين عقدت لهم البيعة بأمرة المؤمنين لا نجد قرشياً واحداً. . فمثلاً:

* عبد الله بن وهب الراسبي (٣٨ هـ ٦٥٨ م) من الأزد. .
* وحوثرة بن وداع بن مسعود (٤١ هـ ٦٦١ م) من أسد. .
* والمستورد بن علفة بن زيد مناة (٤٣ هـ ـ ٦٦٣ م) من تيم الرباب. .
* وزحاف الطائي (٥٠ هـ ٦٧٠ م) من طيء
* وقريب بن مرّة (٥٠ هـ ـ ٦٧٠ م) من الأزد.
* وحيان بن ظبيان السلمي (٥٩ هـ ٦٧٨ م) ليس من قريش. .
* وأبو بلال مرداس ـ (ابن أدية) ـ بن حدير بن عامر بن عبيد بن كعب، الربعي الحنظلي (٦١ هـ ٦٨٠ م) من تميم. .
* ونافع بن الأزرق بن قيس الحنفي (٦٥ هـ ٦٨٥ م) من بكر بن وائل. .
* وعبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي اليربوعي ٦٥ هـ ٦٨٥ م من تميم.
* والزبير بن علي السليطي (٦٨ هـ ٦٨٧ م) من تميم. .

* ونجدة بن عامر الحنفي (٣٦ - ٦٩ هـ ٦٥٦ - ٦٨٨ م) من بكر بن وائل..

* وثابت التمار - الذي بويع له بعد نجدة بن عامر - هو من الموالي..

* وأبو فديك (٧٣ هـ ٦٩٢ م) ليس من قريش..

* وأبو الضحاك، شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني (٢٦ - ٧٧ ٦٤٧ - ٦٩٦ م) ليس من قريش..

* وأبو نعامة - واسمه جعونة - قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد، الكناني المازني (٧٨ هـ ٦٩٧ م) من تميم..

* وعبد ربه الصغير - الذي انشق على قطري، وبويع له بأمرة المؤمنين - هو أحد موالي قيس بن ثعلبة..

* وأبو سماك، عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي الشيباني الوائلي (٨٤ هـ ٧٠٣ م) ليس من قريش..

* وعبد الله بن يحيى بن عمر بن الأسود (١٣٠ هـ ٧٤٨ م) من كندة..

فهم جميعاً ما بين عربي، غير قرشي، وما بين مولى من الموالي، اشترك في البيعة له بامارة المؤمنين: العرب والموالي على حد سواء. وهذه سابقة في فلسفة الحكم لم يسبق لها مثيل في المجتمع العربي الاسلامي.. ولعلها التطبيق الأول لروح فلسفة الاسلام في هذا المقام.

٢ - والخوارج قد أجمعوا على وجوب الخروج على أئمة الجور والفسق والضعف.. أي على وجوب الثورة، والثورة المستمرة، بتعبيرنا الحديث..

فعندهم أن الخروج - (أي الثورة المسلحة والرفض بالعنف الثوري) - يجب اذا بلغ عدد المنكرين على أئمة الجور أربعين رجلاً.. ويسمون هذا الحد: «حد الشراء».. أي الذين اشتروا الجنة عندما باعوا أرواحهم..

فعليهم وجب الخروج (الثورة) - « حتى يموتوا، أو يظهر دين الله، ويخمد الكفر والجور! » . . ولا يحل عندهم المقام والقعود، غير ثائرين، الا إذا نقص العدد عن ثلاثة رجال . . فإن نقصوا عن الثلاثة جازلهم « القعود » وكتمان العقيدة، وكانوا على « مسلك الكتمان » . . وهناك غير « حد الشراء » و « مسلك الكتمان »: « حد الظهور » . . وذلك عند قيام دولتهم ونظامهم تحت قيادة « امام الظهور » . . و « حد الدفاع » . . وهو التصدي لهجوم الأعداء تحت قيادة « امام الدفاع » . .

ويعبر الأشعري في (مقالات الاسلاميين) عن اجماع الخوارج على وجوب الثورة بقوله: انهم متفقون على وجوب « ازالة أئمة الجور، ومنعهم أن يكونوا أئمة، بأي شيء قدروا عليه، السيف أو بغير السيف! » . .

٣ - والخوارج - في تقويم التاريخ الاسلامي - يتبنون ويوالون خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وكذلك خلافة عثمان بن عفان قبل أن يحدث الأحداث التي جدت في السنوات الست الأخيرة من عهده، وأيضاً خلافة علي بن أبي طالب قبل القبول « بالتحكيم » . . أما سنوات عثمان الأخيرة فانهم يبرأون منه فيها، وأما علي، بعد « التحكيم »، فانهم يكفرونه، بعضهم يكفره كفر شرك في الدين، وبعضهم يقول: انه كفر نعمة فقط، أي جحود للنعم الالهية المتمثلة في واجبات الخلافة على أمير المؤمنين! . . وهم يبرأون من خصوم علي، سواء منهم أصحاب « موقعة الجمل »، أو معاوية بن أبي سفيان ومن والاه . .

٤ - والخوارج، في قضية الخلافة والامامة، مع فلسفة الاسلام التي تجعل « الاختيار والبيعة » الطريق لنصب الامام . . ومن ثم فهم أعداء لفكر الشيعة القائل: ان الامامة شأن من شؤون السماء لا اختصاص فيها للبشر، وان السماء قد حددت لها أئمة بذواتهم، نصت عليهم، وأوصت بها لهم قبل

وفاة الرسول، عليه الصلاة والسلام . . وهم أعداء كذلك لمن زعم من أهل السنة أن النص والوصية والتعيين قد سبقت من الرسول، بالامامة والخلافة، لأبي بكر الصديق، مثل فرقة « البكرية » . .

وعندهم، أيضاً، أن الامامة من الفروع، فليست ـ خلافاً للشيعة ـ من أصول الدين . . ولذلك قالوا: ان مصدرها هو « الرأي »، وليس « الكتاب » أو « السنة » . .

٥ ـ وهم يحكمون على مرتكبي الذنوب الكبائر، الذين يموتون دون توبة، بالكفر، وبالخلود في النار . . ولقد تبلور هذا الأصل من أصولهم الفكرية في الصراع الفكري، بل والمسلح، ضد بني أمية، وخاصة خلال الثورة التي قادها الأزارقة تحت قيادة نافع بن الأزرق (٦٥ هـ ٦٨٥ م)، عندما طرحت أحداث الصراع ضد الدولة على بساط الحركة الفكرية القضية التي بدأت بسؤال: هل الحكام الذين ارتكبوا ويرتكبون كل هذه الكبائر واقترفوا ويقترفون كل تلك المظالم، واجترحوا ويجترحون كل هذه السيئات . . هل هم مؤمنون؟! . . أم كافرون؟! . . أم منافقون؟! . أم هم في منزلة بين منزلتي الكفر والايمان؟! . . والخوارج قد انحازوا الى القول بالتكفير! . . ولقد بدأ التكفير بالدولة، ثم عم فشمل المخالفين! . . والغلاة منهم قد جعلوه كفر « شرك »، أما المعتدلون فقالوا انه، فقط كفر « نعمة » أي جحود.

٦ ـ وهم يقولون « بالعدل » . . أي ينفون « الجور » عن الله، سبحانه وتعالى . . ومقتضى هذا الرأي وفق هذا المصطلح : أن الانسان حر مختار، له قدرة مخلوقة وارادة مستقلة واستطاعة مؤثرة، ومن ثم فإن فعله المقدور له هو من صنعه على سبيل الحقيقة لا المجاز، ومن ثمّ فإن مسؤوليته متحققة عن فعله هذا، فجزاؤه، بالثواب والعقاب « عدل » . . على عكس مؤدى قول الذين يقولون « بالجبر »، اذ مقتضى قولهم الحاق « الجور » بالخالق، لاثباته

من لا يستحق وعقابه من لا صلة له في الذنب ولا سبيل له للفكاك من المكتوب والمقدور. .

٧ ـ وهم يقولون « بالتوحيد ». . أي بالتجريد وتنزيه الذات الالهية من أي وجه من وجوه مشابهة أي حادث من الحوادث. . بما في ذلك نفي الصفات التي يؤدي اثباتها لله، أو حتى يوهم، تعدد القدماء. . وبما في ذلك القول بخلق القرآن ـ كلام الله ـ حتى لا يفتح القول بقدم الكلمة ما فتحه في المسيحية من اشراك عيسى ـ كلمة الله ـ مع الخالق في القدم، الأمر الذي أدى الى تبرير القول بالتثليث! . .

٨ ـ وهم يقولون بالوعد والوعيد. . أي بصدق وعد الله للمطيع. . وصدق وعيده للعاصي. . دون أن يتخلف وعده أو وعيده لسبب من الأسباب. . .

٩ ـ وهم يقولن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على نحو متميز عن بعض الذين قالوا بهذا الأصل من أهل السنة وأصحاب الحديث. . ذلك أن الخوارج قد جعلوا لهذا الأصل صلة وثيقة بالفكر السياسي والتغيير للظلم والجور الذي طرأ ويطرأ على المجتمعات، كما جعلوا القوة ـ (قضية السيف) ـ أداة أصيلة وسبيلاً رئيسياً من أدوات النهي عن المنكر وسبل التغيير للجور والفساد. .

١٠ ـ وفوق ذلك فإن الخوارج قد جمعتهم تقاليد اشتهرت عنهم في القتال. . وزهد اتصفوا به في الثروة، فحررهم ذلك من قيود الحرص على الاقتناء، وأعانهم على الانخراط في الثورات والرحيل الأسرع في ركاب الجيوش الثائرة. .

وعن ذلك يعبر شاعرهم الصلت بن مرة فيقول:

اني لأهونكم في الأرض مضطرباً   مالي سوى فرس والرمح من نشب!

كما تأتي الاشارة اليه في حديث شاعرهم يزيد بن حبناء الى صاحبته . . يقول لها:

دعي اللوم ان العيش ليس بدائم ولا تعجلي باللوم يا أم عاصم
فإن عجلت منك الملامة فاسمعي مقالة معنيّ بحقك عالم
ولا تعذلينا في الهدية انما تكون الهدايا من فضول المغانم
فليس بمهد من يكون نهاره جلاداً ويمسي ليله غير نائم!

كما اشتهروا بنسك وتقوى سجلها لهم حتى خصومهم من كتاب المقالات . . وبصدق وشجاعة طبعت سلوكهم، وبرزت في شعر شعرائهم فميزته عن شعر غيرهم الى حد كبير.

ونحن اذا شئنا « نصاً خارجياً » يعبر عن فلسفتهم في الحكم، بمعنى العدل الذي خرجوا لاقامته بدلاً من الجور الذي ثاروا عليه، فإن الكلمات التي خطب بها أبو حمزة الشاري، المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الأزدي السليمي البصري (١٣٠ هـ ٧٤٨ م) أهل المدينة من فوق منبر مسجدها، صالحة لتوجز معنى الجور الذي ثاروا ضده، والعدل الذي طلبوه . . يقول أبو حمزة:

« يا أهل المدينة: سألناكم عن ولاتكم هؤلاء - (ولاة بني أمية) - فأسأتم القول فيهم، وسألناكم: هل يقتلون بالظن؟ فقلتم: نعم، وسألناكم: هل يستحلون المال الحرام، والفرج الحرام؟ فقلتم: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم، نلقاهم، فإن نظهر نحن وأنتم يأت من يقيم لنا كتاب الله وسنة نبيه، ويعدل في أحكامهم، ويحملكم على سنة نبيكم، فأبيتم، وقاتلتمونا، فقاتلناكم وقتلناكم . . . مررت بكم في زمن هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة في ثماركم، فركبتم اليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم

فكتب بوضعه عن قوم من ذوي اليسار منكم، فزاد الغني غنى والفقير فقراً! . . وقلتم: جزاه الله خيراً! . . فلا جزاه خيراً ولا جزاكم! . .

يا أهل المدينة: الناس منا ونحن منهم، الا مشركاً عباد وثن، أو كافراً من أهل الكتاب، أو اماماً جائراً . . أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القوي والضعيف - (يعني مصارف الصدقات كما حددتها آية: ﴿انما الصدقات للفقراء والمساكين. . . ﴾ الآية « من سورة التوبة. » - فجاء تاسع ليس له منها سهم، فأخذها جميعها لنفسه، مكابراً محارباً لربه، فماتقولون فيه، وفيمن أعانه على فعله؟! . .

ان بني أمية قد أصابوا إمرة ضائعة، وقوماً طغاماً جهالاً لا يقومون لله بحق، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى، ويرون أن بني أمية أرباب لهم، فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوبية، بطشهم بطش الجبابرة، يحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويأخذون بالظن، ويعطلون الحدود بالشفاعات، ويؤمنون الخونة، ويغصبون ذوي الأمانة، ويتناولون الصدقة من غير فرضها، ويضعونها غير موضعها، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله، فالعنوهم، لعنهم الله! . .

وأما إخواننا من الشيعة، وليسوا باخواننا في الدين، ولكني سمعت الله يقول:﴿يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ - « الحجرات: ١٣ » - فانها فرقة تظاهرت بكتاب الله، وآثرت الفرقة على الله، لا يرجعون الى نظر نافذ في القرآن، ولا عقل بالغ في الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الثواب، قد قلدوا أمورهم أهواءهم، وجعلوا دينهم العصبية لحزب لزموه وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم، غياً كان أو رشداً، ضلالة كان أو هدى، ينتظرون الدول في رجعة الموتى! ويؤمنون بالبعث قبل الساعة! ويدعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم ما في

بيته، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه، أو يحويه جسمه! ينقمون المعاصي على أهلها، ويعملون بها، ولا يعلمون المخرج منها، جفاة في دينهم، قليلة عقولهم، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة، وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون! . . . . اهـ. . . . ».

ففي هذا النص الخارجي الذي خطب به أبو حمزة الشاري أهل المدينة نجد العديد من المواقف والآراء والمعايير. . فهو:

أولاً: يعلن أن بني أمية قد تولوا السلطة اغتصاباً، ودون استحقاق، وأن جورهم قد عطل الحدود وأضر بالرعية حتى أغنى الغني وأفقر الفقير! . .

وثانياً: يعلن وجوب الخروج، بالسيف، على هذه السلطة الجائرة، لازالتها، ثم يرد الى الناس أمرهم - (سياستهم وسلطتهم) - يختارون، بالشورى، امامهم بأنفسهم ولأنفسهم. .

وثالثاً: يعلن أن الخوارج يبتغون وحدة الأمة في هذا الصراع، فهم « من الأمة والأمة منهم »، لا يستثني من الناس الا الشرك وأهل الكتاب والامام الجائر. .

ورابعاً: يعلن رفض «القعود» عن « الخروج »، ويهاجم « القعدة » الذين يثنون تحت النير الأموي دون أن « يخرجوا » عليه ويقاوموه. .

وخامساً: يهاجم فرقة الشيعة - بعد أن هاجم الفرقة الأموية الحاكمة - لأنها تخلت عن مقامة السلطة و« الخروج » عليها، ولأنها، بدلاً من ذلك، تدينت بالتعصب لآل البيت، واتخذت من حبهم عبادة ترجو القربة بها، وابتدعت عقائد: « الرجعة »، وعلم الأئمة للغيب، وغيرها من العقائد الغريبة عن الاسلام.

ولقد كونت هذه الأفكار والمبادىء السياسية، مع ما سبقت اشارتنا اليه من أصولهم في السياسة، عناصر مذهب وفلسفة في الحكم أثارت الجدل الفكري والصراع السياسي الذي بلور فرق الاسلام الأولى في القرن الأول للهجرة، وبالذات تلك الفرق التي نشأت نشأة سياسية، وفي مقدمتها: الشيعة، والمرجئة، والمعتزلة.

ومعاركهم على درب الثورة المستمرة:

إن فرقة من فرق الاسلام لم تسلكْ طريق الثورة كما سكلته فرقة الخوارج. حتى لقد أصبحت ثوراتهم وانتفاضاتهم أشبه بالثورة المستمرة في الزمان والمنتشرة في المكان ضد الأمويين، بل وضد علي بن أبي طالب منذ التحكيم وحتى انقضاء عهده سنة ٤٠ هـ. وعلى درب ثورتهم المستمرة هذه كانت معاركهم، المتفردة بالاستبسال والفناء في الهدف والمبدأ، معالم تستنفر دماء شهدائهم وذكريات ضحاياهم فيها اللاحقين للاقتداء بالسابقين!..

* فنتيجة « التحكيم » بين علي ومعاوية قد ظهرت في رمضان سنة ٣٧ هـ. وفي شوال بايع الخوارج لأول أمرائهم: عبد الله بن وهب الراسبي، الذي قادهم في حرب النهروان ـ (أسفل موقع بغداد) ـ في صفر سنة ٣٨ هـ ضد جيش علي بن أبي طالب.

* وبعد هزيمتهم في النهروان بشهرين تجددت ثورتهم، فقاتلوا جيش علي ثانية في الدسكرة ـ (بأرض خراسان) ـ في ربيع الثاني سنة ٣٨ هـ، وكانت قيادتهم لأشرس بن عوف الشيباني.

* وفي الشهر التالي لهزيمة « الدسكرة » تجددت ثورتهم بقيادة هلال بن علفة وأخيه مجالد، فقاتلوا جيش علي للمرة الثالثة عند « ماسبذان » ـ

(بأرض فارس) ـ في جمادى الأولى سنة ٣٨ هـ . .

* وبعد هزيمة « ماسبذان » قادهم الأشهب بن بشر البجلي في خروج آخر في نفس العام . . فحاربوا في « جرجرايا » على نهر دجلة . .

* وفي رمضان سنة ٣٨ هـ زحفوا بقيادة « أبو مريم » ـ من بني سعد تميم ـ الى أبواب الكوفة فحاربوا جيش علي بن أبي طالب، وهزموا هناك.

وبعد مقتل علي، وتنازل الحسن لمعاوية، بدأت حرب الخوارج لأهل الشام، ولقد كادوا يهزمون جيش معاوية في أول لقاءلهم به، لولا أن استعان عليهم بأهل الكوفة . .

* وفي سنة ٤١ هـ قاد سهم بن غالب التميمي والخطيم الباهلي تمرداً خارجياً ضد بني أمية استمر حتى قضى عليه زياد بن أبيه، قرب البصرة، سنة ٤٦ هـ، أي بعد خمس سنوات! . .

* وفي أول شعبان سنة ٤٣ هـ قاتل الخوارج، بقيادة أميرهم: المستورد بن علفة، جيش معاوية، وكانت الكوفة يومئذ يتولاها المغيرة بن شعبة.

* وفي سنة ٥٠ هـ ثار بالبصرة جماعة منهم بقيادة قريب الأزدي.

* وفي سنة ٥٨ هـ ثار الخوارج من بني عبد القيس، واستمرت ثورتهم حتى ذبحهم جيش عبيد الله بن زياد! . .

* وفي سنة ٥٩ هـ ثاروا بقيادة حيان بن ظبيان السلمى، وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً عند « بانقيا » قرب الكوفة . .

* وفي سنة ٦١ هـ وقعت المعركة التي قتل فيها أبو بلال مرداس بن أدية، الذي خرج بالأهواز، على عهد والي البصرة عبيد الله بن زياد . . وكان مقتله ـ في آسك ـ وقودا زاد من ثورات الخوارج وكثر من حولهم الأنصار . .

* ثم خرجوا بالبصرة بقيادة: عروة بن أدية، وهو أخو أبو بلال مرداس ابن أدية..

* ثم خرجوا بالبصرة كذلك بقيادة عبيدة بن هلال، الذي أعلن أنه انما خرج «كشيخ على دين أبي بلال؟!»..

* وفي آخر شوال سنة ٦٤ هـ بدأت الثورة الكبرى للأزارقة، بقيادة نافع بن الأزرق، وهي الثورة التي بدأت بكسر أبواب سجون البصرة، ثم خرجوا يريدون الأهواز..

* وفي سنة ٦٥ هـ ثاروا باليمامة يقودهم «أبو طالوت»..

* وفي شوال سنة ٦٦ هـ حاربوا ضد جيش المهلب بن أبي صفرة شرقي نهر دجيل..

* وفي سنة ٦٧ هـ قاد ثورتهم نجدة بن عامر، فاستولوا على أجزاء من اليمن وحضرموت والبحرين..

* وفي أوائل سنة ٦٨ هـ قادهم الزبير بن علي السليطي في حربهم ضد جيش مصعب بن الزبير عند سابور واصطخر، ثم البصرة.

* وفي نهاية سنة ٦٨ هـ ثار الخوارج الأزارقة، وهاجموا الكوفة..

* وفي سنة ٦٩ هـ استولوا على نواحٍ من أصفهان، وبقيت تحت سلطانهم وقتاً طويلاً..

* وفي سنة ٦٩ هـ - كذلك - ثاروا بالأهواز بقيادة قطري بن الفجاءة..

* وفي آخر شعبان سنة ٧٥ هـ حاربوا المهلب بن أبي صفرة، ولما هزمهم انسحبوا الى فارس..

* وفي صفر سنة ٧٦ هـ قاد ثورتهم في «داريا» الناسك صالح بن

مسرح، وقاتلوا في قرية « المدبح » من أرض الموصل. .

* وفي سنة ٧٦ هـ و سنة ٧٧ هـ تمكنوا، بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم، من ايقاع عدة هزائم بجيوش لحجاج بن يوسف الثقفي. .

* ثم تكررت ثورتهم بقيادة شوذب، وحاربوا في الكوفة على عهد يزيد الثاني (١٠١ ـ ١٠٥ هـ، ٧٢٠ ـ ٧٢٤ م). .

* وفي عهد هشام الثاني (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ ٧٢٤ ـ ٧٤٣ م) ثاروا وحاربوا في الموصل بقيادة بهلول بن بشر، ثم بقيادة الصحاري بن شبيب، حيث حاربوا عند « مناذر »، بنواحي خوزستان. .

ولقد أدت هذه الثورات المتكررة، شبه المتصلة، الى ضعف الدولة الأموية، وتعدد الفرق والأحزاب المعارضة. . كما أدت الى اتساع نطاق الثورة الخارجية بين الناس، فلم تعد قاصرة على قلة من الناس يؤمنون بفكر هذه الفرقة ويخرجون تطبيقاً لهذا الفكر، وانما شاركت الجماهير الغفيرة في هذه الثورات والتمردات والانتفاضات. .

* ففي سنة ١٢٧ هـ حارب في جيش الخوارج الذي قاده الضحاك بن قيس الشيباني مائة وعشرون ألفاً من المقاتلين، وحاربت في هذا الجيش نساء كثيرات؟!، وانتصر هذا الجيش على الأمويين بالكوفة في رجب سنة ١٢٧ هـ وبواسط في شعبان سنة ١٢٧ هـ.

* وفي سنة ١٢٩ هـ ثاروا باليمن بقيادة عبد الله بن يحيى الكندي، واستولوا على حضرموت واليمن وصنعاء، وأرسل عبد الله بن يحيى جيشاً يقوده حمزة الشاري فدخل مكة، وانتصر في المدينة الى أن هزمه جيش أموي جاءه من الشام في جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ. .

وهذه الثورات الخارجية وان لم تنجح في اقامة دولة مستقرة يستمر حكم

الخوارج فيها طويلاً، الا أنها قد أصابت الدولة الأموية بالاعياء حتى انهارت انهيارها السريع تحت ضربات ثورة العباسيين في سنة ١٣٢ هـ. . فالعباسيون قد « قعدوا » عن الثورة قرابة القرن، بينما قضى الخوارج هذا القرن في ثورة مستمرة، ثم جاء « القعدة » فقطفوا ثمرة مازرعه الثوار؟!. .

واذا أردنا أن نعرف كم كلفت ثورات الخوارج بني أمية كفانا أن نذكر أنهم لم يستطيعوا احراز النصر على الخوارج الا بقائدهم المهلب بن أبي صفرة، ولم يستطع المهلب أن يهزم الخوارج الا بعد أن أخذ الأرض وخراجها اقطاعاً له ولجنده المحاربين، ويروي المسعودي في (مروج الذهب) أنه « لما غلبت الخوارج على البصرة، بعث اليهم عبد الملك بن مروان جيشاً فهزموه، ثم بعث اليهم آخر فهزموه. . فقال: من للبصرة والخوارج؟! فقيل له: ليس لهم الا المهلب بن أبي صفرة. . فبعث الى المهلب، فدار بينه وبين الخليفة هذا الحوار الذي بدأه المهلب بطلبه وشرطه:

- على أن يكون لي خراج ما أجليتهم عنه!
- اذن تشركني في ملكي؟!
- فثلثاه!
- لا!
- فنصفه، والله لا أنقص منه شيئاً، على أن تمدني بالرجال، فإذا أخللت فلا حقّ لك علي!. .

أي أن الدولة قد وضعت كل ما لديها في خدمة الجيش والقائد الذي حاربهم في العراق. .

بل لقد استعان المهلب في قتاله للخوارج، علاوة على ذلك - كما أخبرنا المبرد في (الكامل)! بالتجار، عندما أغراهم بازدهار تجاراتهم التي أصابتها ثورات الخوارج بالكساد، فنهضوا بتمويل حملاته الحربية ضد الثوار. . حتى

لقد أسرع اليه الناس رغبة « في مجاهدة الخوارج، ولما في الغنائم، والتجارات!».

كما استعان في حربهم بالأحاديث الكاذبة، كان يضعها ضدهم وينسبها الى رسول الله، عليه الصلاة والسلام!.. وكما يقول المبرد: فلقد « كان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين ويضعف من أمر الخوارج، فكان حي من الأزد، يقال لهم الندب، اذا رأوا المهلب رائحاً اليهم قالوا: قد راح المهلب ليكذب! وفيه يقول رجل منهم:

أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ما تقول!

وبهذه الامكانيات كلها وبهذه الأسلحة جميعها رجحت كفة المهلب بن أبي صفرة على كفة الخوارج فانتصر عليهم في القتال.. ومع ذلك، فلقد ظلت شرارة ثورتهم المستمرة تولد الانتفاضة اثر الأخرى، كما ظلت فلسفتهم السياسية تشعل الجدل الذي أصبح وقوداً يذكي نار الصراع على السلطة بين الفرق المعارضة وبين الأمويين ومن بعدهم بني العباس..

خلافاتهم.. وما أصابهم من انقسامات:

والخوارج، مثلهم كمثل سائر الفرق الاسلامية، لم يمنعهم الاتفاق في « الأصول والمقالات » من الاختلاف في « الفروع والمسائل »، فشهد تاريخهم عدداً من الانقسامات التي قادها عدد من أعلامهم وأئمتهم، وحسبها الذين أرخوا للمقالات « فرقاً » داخل الحركة الخارجية، بينما هي تيارات وفروع في اطار فرقة واحدة اتفقت في « الأصول والمقالات » واختلفت في « المسائل والفروع »..

ومن مؤرخي الفرق - مثل المقريزي في (الخطط) - من يصل بتعداد « فرقهم » الى سبع وعشرين فرقة.. والأشعري في (مقالات الاسلاميين)

يقف « بفرقهم » حول النصف من هذا العدد، ولكنه يعدد فروعاً وانقسامات داخل كل فرقة تصل بالتعداد الى أكثر مما وجدناه عند المقريزي . وبين تعداد المقريزي وتعداد الأشعري يقف تعداد البغدادي « لفرق » الخوارج في كتابه: (الفرق بين الفرق) . .

ولقد ظل الخوراج بعيدين عن الانقسام حتى عهد امامهم نافع بن الأزرق، الذي مثلت جماعته ـ (الأزارقة) ـ أول انقسام داخل تيار الخوارج العام . .

وبعد أن استشرت الانقسامات والاختلافات في « المسائل والفروع » ظلت الجماعات الرئيسية في حركة الخوارج هي :

١ ـ **الأزارقة**: وهم أول من حكم بأن ديار مخالفيهم هي ديار كفر، من أقام بها فهو كافر. . وقالوا : ان النار هي مثوى أطفال مخالفيهم، وأنكروا رجم الزاني، وأقروا الحد لقذف المحصنة دون قذف المحصن، وسووا في قطع يد السارق بين أن يكون المسروق قليلاً أو كثيراً . . وسموا بالأزارقة تبعاً لاسم امامهم: نافع بن الأزرق . .

٢ ـ **والنجدات**: وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي . . تميزوا عن فروع الخوارج الأخرى بقولهم: ان الدين أمران، **أحدهما**: معرفة الله ومعرفة رسوله، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم، **وثانيهما**: الاقرار بما جاء من عند الله جملة، وما عدا ذلك من الحلال والحرام والشرائع فالجاهل بها معذور، لأنها ليست من الدين . . وقالوا بكفر المصر على الذنب والمعصية، كبيرة كانت أو صغيرة، أما من يقارف المعاصي، دون اصرار عليها، فهو مؤمن غير كافر . .

ـ **الاباضية**: أتباع عبد الله بن أباض، أوالمنسوبون الى قرية من قرى اليمامة اسمها « أباض » على خلاف في سبب التسمية . . والأباضيون هم

أقل جماعات الخوارج غلوا، وأكثرها اعتدالاً، وأقربها الى فكر أهل السنة.. فعندهم أن كفر مرتكب الذنوب الكبائر هو « كفر نعمة »، أي جحود نعمة، وليس كفر شرك بالله.. والايمان عندهم هو جميع ما افترضه الله على خلقه.. ولم يقولوا - مثل الأزارقة - ان أطفال الكفار كفار مخلدون في النار..

٤ - **الصفرية**: نسبة الى: زياد بن الأصفر.. أو « النعمان بن الأصفر.. أو: عبد الله بن صفار» -على خلاف في ذلك - وهم في غلوهم مثل الأزارقة، خالفوهم فقط، في امتناعهم عن قتل أطفال المخالفين لهم في الاعتقاد..

* * *

وهذه الفروع الخارجية، وغيرها ممن ذكرتهم كتب المقالات والفرق، قد انقرضوا، وأصبحت مقالاتهم جزءاً من تراث العرب المسلمين.. وذلك باستثناء الخوارج الاباضية، فلا تزال لهم بقايا وأتباع حتى الآن في أجزاء من الوطن العربي وشرقي أفريقيا.. وبالذات في « عمان » و « مسقط » على الخليج العربي، وفي أنحاء من المغرب العربي - (تونس والجزائر) - وفي الجنوب الشرقي للقارة الأفريقية - (زنجبار) -.. وهم ينكرون علاقتهم بفكر الخوارج الغلاة، بل ربما أنكر بعضهم أية صلات لمذهبهم بمذهب الخوارج على الاطلاق، فلقد تطور مذهبهم وطوعت الحياة وأحداثها أفكارهم حتى اقتربوا من مذاهب أهل السنة في الكثير من المقالات.

(المصادر)

ابن أبي الحديد: (شرح نهج البلاغة) تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.
ابن الأثير: (اللباب في تهذيب الأنساب) طبعة دار صادر ـ بيروت.
ابن جميع (أبو حفص عمر): (متن عقيدة التوحيد) نشر: موتيلينسكي. طبعة باريس سنة ١٩٣٠ م.
(مقدمة التوحيد وشروحها) تصحيح وتعليق: أبو اسحاق ابراهيم أطفيش الجزائري. طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ.
ابن قتيبة: (الامامة والسياسة) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
الأشعري: (أبو الحسن): (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين). تحقيق: هـ ريتر. طبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م.
البغدادي (عبد القاهر): (الفرق بين الفرق). طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.
الزركلي: (الأعلام): طبعة بيروت، الثالثة.
فلهوزن (يوليوس): (الخوارج والشيعة) ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م.
المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): (الكامل ـ باب الخوارج) طبعة دمشق سنة ١٩٧٢ م.

المسعودي: (مروج الذهب) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

المقريزي: (تقي الدين أحمد بن علي): (الخطط ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) طبعة دار التحرير ـ القاهرة.

نصر بن مزاحم المنقري: (وقعة صفين) تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ. (دائرة المعارف الاسلامية) ـ الطبعة العربية، الثانية. دار الشعب. القاهرة.

٣ ـ المرجئة

مصطلح الإرجاء

لقد جاء هذا الاسلام، الذي عرفت به أحزاب وفرق وجماعات اسلامية، جاء اشتقاقاً ونسبة الى مصطلح: «**الارجاء**».. وهذا المصطلح قد عنى، في الفكر الاسلامي: الفصل بين «**الايمان**»، باعتباره تصديقاً قلبياً ويقيناً داخلياً غير منظور، وبين «**العمل**»، باعتباره نشاطاً وممارسة ظاهرية قد تترجم أو لا تترجم عمّا بالقلب من «ايمان».. ومؤدى هذا الفصل: الرفض القاطع للحكم على العقائد والضمائر من قبل بشر أياً كان مكانه أو سلطانه، فما دام العمل لا يترجم، بالضرورة، عن مكنون العقيدة، فلا سبيل اذا للحكم على المعتقدات، وما علينا الا أن «نرجىء» الحكم على العقائد وعلى الايمان الى يوم الحساب، فذلك هو حينه، وتلك احدى مهام الخالق، سبحانه وتعالى، وحده، وليست مهمة أحد من المخلوقين في حياتنا الدنيا..

والشائع في كتب المقالات الاسلامية أن تيار الارجاء في الفكر والتاريخ الاسلامي قد توزعته فرق عدة، يصل بها أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ ـ ٩٣٦ م) في كتابه (مقالات الاسلاميين) الى اثنتي عشرة فرقة، وهي:

١ ـ الجهمية: أتباع الجهم بن صفوان (المتوفى سنة ١٢٨ هـ (سنة ٧٤٥ م).. وخلاصة مقالتهم: أن الايمان هو: المعرفة بالله ورسله وما جاء

من عنده، وما عدا ذلك ليس من الايمان . . والكفر هو: الجهل بالله ورسله وما جاء من عنده.

٢ ـ الصالحية: أتباع أبي الحسين الصالحي.
٣ ـ اليونسية: أتباع يونس السمري.
٤ ـ الشمرية: أتباع أبي شمر ويونس. .
٥ ـ الثوبانية: أتباع أبي ثوبان.
٦ ـ النجارية: أتباع الحسين بن محمد النجار.
٧ ـ الغيلانية: أتباع غيلان بن خرشة الضبي.
٨ ـ الشبيبية: أتباع محمد بن شبيب.
٩ ـ الحنفية: أتباع أبي حنيفة النعمان.
١٠ ـ المعاذية التومنية: أتباع أبي معاذ التومني. .
١١ ـ المريسية: أتباع بشر المريسي.
١٢ ـ الكرامية: أتباع محمد بن كرام السجستاني.

وغير الأشعري، من كتاب المقالات، يختلفون معه في التعداد، فهم تسعة عند البغدادي (٤٢٩ هـ ١٠٣٧ م) في كتابه (الفرق بين الفرق). . بينما هم أربعة أصناف عند الشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ ـ ١١٥٣ م) في كتاب (الملل والنحل). . ولقد عدهم الخوارزمي (٣٨٧ هـ ٩٩٧ م) ست فرق في (مفاتيح العلوم). . بينما جعلهم ابن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م) فرقتين في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل). .

وفي رأينا أن مرد هذا الاختلاف مرتبط بذلك النهج غير الموضوعي الذي تسزب الى كثير من كتب المقالات، عندما أصبح الخلاف في « رأي » أو « مسألة » يؤدي عند التصنيف والتأريخ الى اعتبار كل صاحب « رأي »

أو « مسألة » زعيم فرقة أو مدرسة أو تيار . . وعندما أهملت الأصول السياسية والدوافع الاجتماعية التي أثمرت نشأة الفرق الاسلامية، وانحصرت الرؤية ووقف البحث عند مقالات هذه الفرق باعتبارها جدلاً دينياً لا علاقة له بالواقع السياسي والاجتماعي الذي عاش فيه أصحاب هذه المقالات . . .

ومن ثم، فإن الدراسة التي يتخلص منهجها من هذا العيب تستطيع أن ترصد نشأة المرجئة وفكر الارجاء وتياراته وفرقه على نحو أدق، كما تستطيع أن تفسر وتجلو سر اختلاف كتاب المقالات الاسلامية في تعداد فرق الذين قالوا بالارجاء . .

* * *

فالارجاء، كفكر، والمرجئة كأصحاب لهذا الفكر، قد عرفهم المجتمع الاسلامي أول ما عرفهم على عهد الدولة الأموية، ومنذ أن استقر ذلك التغيير الذي أحدثه معاوية بن أبي سفيان (٢٠ ق. هـ - ٦٠ هـ ٦٠٣ - ٦٨٠ م) في طبيعة السلطة بالمجتمع الاسلامي . . كانت « الشورى » فلسفة نظام الحكم في عهد الخلافة الراشدة، وكانت الخلافة حقاً استأثرت به (هيئة المهاجرين الأولين)، وهي حكومة دولة المدينة، التي ضمت العشرة الذين سبقوا الى الاسلام من مهاجرة قريش. فجاء تأسيس معاوية للدولة الأموية ليضع النظام « الوراثي »، الشبه ملكي، مكان « الشورى »، ويستبدل (بالمهاجرين الأولين) الأمويين . . وتبع ذلك التغيير قيام مظاهر كثيرة للظلم الاجتماعي، الأمر الذي أدى الى نشأة العديد من حركات المعارضة وأحزاب المقاومة، فعالجها معاوية وخلفاؤه بألوان من القمع وضروب من الاضطهاد أدت الى أن طرحت الحياة الفكرية في المجتمع الاسلامي على بساط بحثها قضية: هل من أحدث مثل هذه التغييرات والتحولات في نظام

الحكم الاسلامي، وصنع كل هذه المظالم، ومارس أنواع الاضطهاد تلك. . هل هو « مؤمن »؟. . أي أن الحياة السياسية والفكرية قد شرعت تبحث عن دلالة « العمل » على « الايمان » وعن العلاقة بينهما أمرتبطان هما؟ أم منفصلان؟. . وكان معاوية بن أبي سفيان وأنصار دولته مع الفصل بين « الايمان » و « العمل »، فإذا كانت أعمال الدولة لا تصلح نموذجاً مثالياً لقيم الدين وما هو منتظر من المتدينين به، فلا يجب أن تتخذ دليلاً على افتقار خلفائها وأمرائها وولاتها الى « الايمان »، لأنه لا يعدو أن يكون تصديقاً قلبياً، لا تضر معه معصية مهما كبرت، كما هو الحال في الكفر، اذ لا تنفع معه طاعة. . ويجب « ارجاء » الحكم على العقائد الى البارىء، سبحانه، في يوم الدين. .

هكذا عرف المجتمع الاسلامي، أول ما عرف، تيار الارجاء. . بدأ ببني أمية وأنصار دولتهم. . واستهدف ابعاد شبح التكفير والادانة الدينية عن أولئك الذين قلبوا نظام الحكم في المجتمع الاسلامي وبدلوا فلسفته من « شورى » واختيار الى « وراثة » في ملك عضوداً. .

* * *

ثم مضت الحياة بالمجتمع الأموي، فاتسعت جغرافية الدولة، وكان اقبال الشعوب غير العربية، التي فتحت بلادها، على اعتناق الاسلام ملحوظاً وغير بطيء، على حين كان « تعرب » هذه الشعوب وامتلاك أبنائها لأدوات العربية وملكاتها التي تتيح لهم القدرة على فهم القرآن واقامة الشعائر الدينية بآياته وسوره، أمراً غير يسير. . لقد اعتنقوا الاسلام، وأعلنوا أنهم قد « آمنوا » و « صدقوا »، ولكن « أعمالهم » قد ظلت مشوبة بنواقص، اذا نحن قسناها « بأعمال » الذين يفقهون الكتاب المبين لدين الاسلام. .

وكان دخول هذه الشعوب الى حظيرة الاسلام داعياً الى اسقاط الجزية

عنهم، فهي ضريبة رأس يدفعها القادرون من غير المسلمين.. ووجد الأمويون في ذلك افقاراً لخزانة الدولة، فبحثوا عن حجة دينية يبررون بها قرارهم: بقاء الجزية على هؤلاء الذين دخلوا حديثاً في دين الاسلام!.. فكانت الحجة: ان اسلام هؤلاء القوم غير صحيح، بمواصفات الاسلام الصحيح، لأن «أعمالهم» لا ترقى الى مستوى الترجمة عن «ايمان» يقيني تعمر به القلوب!.. فهم هنا قد ربطوا «الايمان» «بالعمل».. أي عارضوا ـ وهم المرجئة ـ فكر الارجاء!.. وكأنهم أحلوا الارجاء اذا كان ينجي الحكام من الادانة، وحرموه اذا كان يعفي المحكومين من دفع الجزية بعد اعتناقهم الاسلام!..

صنع الأمويون ذلك مع شعوب البلاد المفتوحة، من غير العرب، عندما اشترطوا لصحة اسلامهم شروطاً منها:

١ ـ الاختتان.. (والذين كانوا يسلمون لم يكونوا أطفالاً ولا صبية حتى يسهل عليهم يومئذ الاختتان!).

٢ ـ واقامة فرائض الدين.. (والاقامة للفريضة تتطلب مستوى أرقى من مستوى الأداء!).

٣ ـ وحسن الاسلام.. (وهو شرط يصعب وضع المقاييس الدالة على بلوغ اسلام المرء حده ودرجته!).

٤ ـ وقراءة سورة من القرآن.. (وهو شرط تعجيزي بالنسبة لقوم لا يعرفون العربية الدارجة، فأنى لهم قراءة قرآنها المعجز؟!).

ولقد فجر هذا الظلم الأموي تمردات ومعارضات وانتفاضات وثورات بين أبناء الشعوب التي دخلت حديثاً حظيرة الاسلام، وكسب هؤلاء المعارضون الى صفوفهم قادة وعلماء من العرب المسلمين، الذين عبرت عن فكرتهم كلمات عمر بن عبد العزيز (٦١ . ١٠١ هـ ـ ٦٨١ ـ ٧٢٠ م): « ان

الله قد بعث محمداً هادياً، ولم يبعثه جابياً! » . . ووجدت هذه الثورات وهؤلاء الثوار في فكر « الارجاء » صيغة يشجبون بها، فكرياً، موقف الدولة الأموية، فكان ذلك بدء النشأة لتيار المرجئة والارجاء في صفوف المعارضة لبني أمية، بعد أن نشأ مبكراً في صفوف هذه الدولة وأنصارها . .

ولقد كانت لهؤلاء المرجئة الثوار وقائع مع سلطات الدولة الأموية. وكانت لهذه السلطات مجازر في هؤلاء الثوار . . ومن المواطن التي شهدت تلك الأحداث: منطقة « السخد »، بالقرب من سمرقند . . و « بخارى »، حيث شنق الأمويون أربعمائة من هؤلاء الثوار اعتصموا بالمسجد يصيحون: « أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله! » . . وبالقرب من البصرة، حيث عسكروا في العراء يصيحون: يا محمداه! يا محمداه! . . كما غلب فكر المرجئة على الثورة التي قادها عظيم الأزد الحارث بن سريج (١٢٨ هـ ـ ٧٤٦ م) ضد هشام بن عبد الملك سنة ١١٦ هـ، فلقد كان الرجل الثاني في هذه الثورة، وكبير دعاتها، الذي يقص القصص ويخطب الخطب ويقرأ سيرة الثورة والثوار، هو أبرز زعيم لأهم تيار من تيارات الارجاء: الجهم بن صفوان! . . ولقد انتشرت هذه الثورة في مناطق « الفارياب » و « بلخ » و « الجوزجان »، و « الطالقان » و « مرو الروذ »، وهي مواطن الترك الذين دخلوا الاسلام، ورفض الأمويون الاعتراف بأنهم يؤمنون! . . وكان من مطالب هذه الثورة أيضاً: أن تعود « الشورى » فلسفة لنظام الخلافة، وأن يعزل الولاة، وقادة الشرطة، وأن يشترك الناس في اختيار الولاة الذين يحكمون الأقاليم!

ولقد كسبت ثورات المرجئة هذه الى صفوفها العديد من العلماء والفقهاء والقراء، منهم: أبو الصيداء صالح بن طريف، وربيع بن عمران التميمي، والقاسم الشيباني، وأبو فاطمة الأزدي، وبشر بن جرموز

الضبي، وخالد بن عبد الله النحوي، وبشر بن زنبور الأزدي، وعامر بن بشير الخجندي، وبيان العنبري، واسماعيل بن عقبة، وثابت قطنة... وهذا الأخير هو الذي ترك في تراثنا قصيدته التي تضمنت العديد من ملامح فكر المرجئة، فضلاً عن تعبيرها عن روح دعوتهم، وفيها يقول:

يا هند اني أظن العيش قد نفدا ... ولا أرى الأمر الا مدبراً نكدا
اني رهينة يوم لست سابقه ... الا يكن يومنا هذا فقد أفدا[1]
بايعت ربي بيعاً ان وفيت به ... جاورت قتلى كراماً جاوروا أحداً
يا هند فاستمعي لي ان سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحداً
نرجي الأمور اذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهم ... والمشركون استووا في دينهم قدداً
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً ... م الناس شركاً اذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفك الدم الا أن يراد بنا ... سفك الدماء طريقاً واحداً جدداً[2]
من يتق الله في الدنيا فإن له ... أجر التقى اذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له ... رد وما يقض من شيء يكن رشداً
كل الخوارج مخط في مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علي وعثمان فانهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا ... شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزى علي وعثمان بسعيهما ... ولست أدري بحق أية وردا
الله أعلم ماذا يحضران به ... وكل عبد سيلقى الله منفرداً

وفي أبيات هذه القصيدة يضع ثابت قطنة عدداً من قواعد الارجاء التي

(١) أفدا أي أزف.

(٢) جددا: أي مستويا.

تميز بها هذا التيار من تيارات المرجئة :

فأولاً : أصحاب هذا التيار ثوار معارضون للظلم منكرون على الظالمين :

نرجى الأمور اذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا

وثانياً: يشير الى ايمانه مع أصحابه بفكر « الجبر » عندما يقول:

وما قضى الله من أمر فليس له رد وما يقض من شيء يكن رشداً

وهم في هذا الموقف، أيضاً، يتفقون مع تيار الارجاء الأموي - في الفكر والمبدأ - فلقد كان معاوية وأنصاره « جبرية » يبررون « بالجبر » ما أحدثوا من تغييرات ومظالم، باعتبارها فعل الله وارادته وقدره وقضاءه. .

وثالثاً: تفصح هذه القصيدة عن موقف تيار المرجئة هذا من علي وعثمان والصراع الذي نشب بينهما، وهو موقف يتميز عن مواقف كل من: الخوارج، والشيعة، وبني أمية :

أما علي وعثمان فانهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

كما يحكم بأن ما حدث بينهما انما كان بغير ارادة منهما - وهو موقف المجبرة وفكرها -:

وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا وبعين الله ما شهدا. . !

* * *

فنحن، اذن، بازاء معنى محدد للارجاء، وصيغة واحدة لفكر الذين قالوا بالارجاء: الفصل بين « الايمان » و « العمل ». . ولكننا أمام تيارات متعددة، بل ومتعارضة، استخدمت هذا الفكر، الذي نشأ نشأة سياسية في صراع سياسي واجتماعي، استخدمته في نصرة فريق ضد فريق، وقوة

سياسية واجتماعية ضد أخرى. . فالبعض قد وظف الارجاء للدفاع عن الدولة والحكام، والبعض قد تسلح به في صراعه ضد هذه الدولة وهؤلاء الحكام. . كما أننا أمام خلافات واختلافات في تعريف « الايمان »، أسهمت في وجود فروق فكرية بين العديد من علماء المرجئة، الأمر الذي جعل مؤرخي الفرق والمقالات يجعلون هذه الفروق في هذه « المسألة » حدوداً تجعل أصحابها « فرقاً » متعددة، وليسوا علماء فرقة أو تيار يختلفون في الجزئيات. .

* فبعض المرجئة (مثل الجهم بن صفوان وفرقته) يرون أن الايمان هو: **المعرفة بالله ورسله وما جاء من عنده وعقد القلب على هذه المعرفة. . ولا يضر هذا الايمان ما يعلن صاحبه، حتى لو أعلن الكفر وعبد الأوثان!. .**

* والكرامية - المرجئة - أتباع محمد بن كرام السجستاني - يقولون ان الايمان هو: **قول باللسان . . حتى وان اعتقد صاحب هذا القول الكفر بقلبه!. .**

* والثوبانية - المرجئة - أتباع أبي ثوبان - عندهم أن الايمان هو: **المعرفة والاقرار بالله ورسله فقط. . أما ما يجيز العقل فعله أو تركه فليس داخلاً في تعريف الايمان، لأنه « عمل »، وهو مؤخر عن الايمان. .**

ففكر الارجاء، كما قلنا، واحد، وزعت أصحابه وباعدت بينهم المواقف السياسية والمواقع الاجتماعية التي جعلت البعض يوظفه لمصلحة الحكام بينما وظفه آخرون لخدمة المحكومين. أما الاختلافات التي نشأت من تعدد التعريفات المقدمة « للايمان »، فهي لا تعدو أن تكون خلافات في الجزئيات، داخل الاطار الواحد لفكر المرجئة، وهي لا ترقى الى الخلاف في « المقالة »، ومن ثم لا تنفي عن أصحابها الاجتماع تحت مظلة الأصول

الواحدة « للفرقة » الواحدة، بالمعنى المرن لهذا المصطلح في فكرنا العربي الاسلامي.

* * *

وغير هذين التيارين من تيارات المرجئة كان هناك تيار ثالث في حركة الارجاء، ذكره مؤرخو المقالات ضمن هذه الحركة، وان يكن للارجاء عنده معنى متميز، بل ومختلف عن ذلك المعنى الذي أشرنا اليه. وأصحاب هذا التيار الثالث نجدهم من أئمة المعتزلة وفروع تيارها الفكري العام، كما نجدهم في بعض فروع فرقة الخوارج. .

ولم يكن أحد من هذا التيار الارجائي يفصل بين « الايمان » و « العمل »، بل كانوا على الضد من ذلك، وانما نشأ قولهم بالارجاء واستخدامهم لمصطلحه عندما ثار الجدل ـ بدافع سياسي كذلك ـ حول ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل والأفضلية. . فالشيعة عموماً، وخاصة الغلاة من فرقها وتياراتها، قد فضلوا علي بن أبي طالب على الصحابة أجمعين، بمن فيهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان. . ولكن نفراً من آل البيت، الذين يعدون في أسلاف المعتزلة وأعلامهم الأول، قد أخروا علياً في الترتيب و « أرجأوه » في الفضل على النحو الذي مثلته المراحل الزمنية في تولي الخلافة من قبل هؤلاء الخلفاء، فجعلوا فضلهم مرتباً وفقاً لترتيب توليهم للخلافة، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي. . وبعضهم جعل علياً بعد عمر وسابقاً على عثمان. .

وأول من قال بهذا اللون من ألوان « الارجاء » هو الحسن بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب (المتوفى سنة ٩٩ هـ. وقيل سنة ١٠٠ هـ). . ولقد تبعه في هذا الرأي كثير من المعتزلة ـ وهو معدود من أئمتهم الأول ـ. . كما قال به، أيضاً، من الخوارج كثيرون. .

فهو « ارجاء ».. ولكنه مختلف عن ارجاء الـذين يفصلون « العمل » عن « الايمان ».. وكما يقول واحد من أبرز مفكري الشيعة: أبو جعفر محمد ابن يعقوب ين اسحاق الكليني في كتـابه (الأصـول من الكافي): أنـه « قد تطلق المرجئة على من أخر أمير المؤمنين علياً عن مرتبته »..

* * *

وجدير بالذكر أن واقعنا المعاصر وان لم تقم فيه فرقة أو مذهب تتسمى باسم المرجئة، الا أن فكر الارجاء لا زال حياً في ثنايا العديد من مـذاهب الاسلاميين المعاصرين، وعلى الأخص في المذهب الأشعري.. فالأشعرية ـ كما يقول ابن حزم الأندلسي ـ يذهبون في هذا الموضوع مذهب « الجهمية »، أتباع الجهم بن صفوان

المصادر

ابن أبي الحديد: (شرح نهج البلاغة) تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.

ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد): (الفصل في الملل والأهواء والنحل) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

ابن سعد: (الطبقات الكبرى). طبعة دار التحرير. القاهرة.

الأشعري (أبو الحسن علي بن اسماعيل): (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) تحقيق: هـ. ريتر. طبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م.

الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي): (الأغاني) تحقيق: ابراهيم الأبياري. طبعة دار الشعب. القاهرة.

البغدادي (عبد القاهر): (الفرق بين الفرق). طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف): (مفاتيح العلوم) طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ

الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم): (الملل والنحل). طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): (تاريخ الأمم والملوك) تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة دار المعارف. القاهرة.

عبد الجبار بن أحمد: (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق: فؤاد سيد

طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.
فان فلوتن: (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية) ترجمة: د. حسن ابراهيم حسن، محمد زكي ابراهيم، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.
القاسمي (جمال الدين): (تاريخ الجهمية والمعتزلة) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
الكليني (أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق): (الأصول من الكافي) تحقيق: علي أكبر العفاري. طبعة طهران سنة ١٣٨٨ هـ.
محمد عبده (الامام): (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.
المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): (الخطط ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) طبعة دار التحرير. القاهرة.

الفهرس

صدر من هذه المجموعة

- الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية، د/ عبد الرحمن بدوي . 3.000
- علم الكيمياء والصيدلة عند العرب - د/ فاضل احمد الطائي . 2.000
- علم الفيزيقا عند العرب - د/ احمد سعيد الدمرداش 1.500
- علم النبات عند العرب - د/ عبد السلام محمد النويهي 1.000
- الجغرافية عند العرب - د/ شاكر خصباك 3.500
- الجيولوجيا عند العرب - د/ علي السكري 2.500
- أصول الدين، أصول الفقه، العقل والنقل، د/ حسن حنفي .. 3.000
- القرآن وعلومه، الحديث وعلومه، د/ محمد خلف الله 1.500
- الفقه الاسلامي - الدكتور علي عبد القادر 2.500
- نظرية الخلافة - د/ محمد عمارة 2.000
- السلفية - د/ محمد عمارة 1.500
- الثورة - د/ محمد عمارة 2.500
- الفرق الاسلامية - د/ محمد عمارة 4.000
- فن الحرب عند العرب - اللواء جمال محفوظ 2.800
- أثر الحروب الصليبية في العالم العربي - د/ قاسم عبده قاسم 1.500
- مظاهر الحياة اليومية في عصر المماليك - د/ قاسم عبده قاسم .. 1.500
- نظم الحكم والادارة في عصر الأيوبيين والمماليك، د/ سعيد عاشور 1.500
- المرأة والمؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، د/ سعيد عاشور 2.000
- النقد والبلاغة - د/ شكري عياد 1.500
- علم العروض - د/ محمد بدوي المختون 1.500

تم سحب ثلاثة آلاف نسخة من هذا الكتاب.

تدمك : 4 - 349 - 16 - ISBN 9973

الثمن : 4.000 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.